حوليات آداب عين شمس (عدد خاص ٢٠١٧)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)

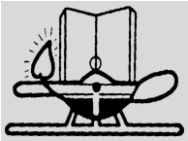

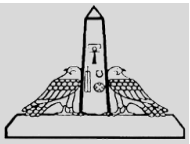

الحبكة بين روايتي "صلاح الدين الأيوبي" لكلٍ من: "قاضي عبد الستار، و"جرجي زيدان" دراسة مقارنة

أميرة أحمد ماهر محمد *

المعيدة بقسم اللغات الشرقية وآدابها– فرع اللغة الأردية

المستخلص

تناول هذا البحث عقد دراسة مقارنة بين حبكتي روايتين تاريخيتين حملتا اسم (صلاح الدين الأيوبي)، بين الأديب الأردي " قاضي عبد الستار" والأديب العربي " جورجى زيدان "،

وقد اعتمد البحث على المنهج المقارن، الذي استطعنا من خلاله عقد دراسة مقارنة بين الحبكة، وعناصرها، وتوضيح الفرق بين أحداثها داخل الروايتين أمام القارئ.

وقد تناول البحث بعض العناوين الفرعية لعقد الدراسة المقارنة بين عنصري الحبكة داخل الروايتين، بدأت بعد المقدمة بمدخل تناولنا فيه تعريف الحبكة، وأقسامها من الناحية البنائية ومن ناحية الوحدة والبناء، ثم عرض لمكونات الحبكة، يليها عرض للخطوط العامة التي تقوم عليها أحداث رواية صلاح الدين الأيوبي لقاضي عبدالستار، يتبعها سرد للأحداث نعرض من خلاله الحبكة ومراحل تطورها حتى النهاية، يتبعها عرض للخطوط العامة لأحداث رواية صلاح الدين الأيوبي لجرجي زيدان، يليها سرد لأحداث روايته، نعرض من خلاله حبكة روايته وعناصرها حتى النهاية.

ثم جاء البحث بعنوان فرعي يحمل اسم (تدخل الكاتب في سير الأحداث)، وعرضنا كيف أن الكاتبين يستخدمان تقنية الوصف في تعطيل سيرالأحداث. ثم عنوان (الاعتماد على المصادفات)، وعرضنا فيه إلى أي درجة كان يلجأ الكاتبان إلى الاعتماد على عنصر المصادفة لافتعال الأحداث داخل روايته. ثم عنوان (الاعتماد على عنصر الإثارة والتشويق)، وأوضحنا التفاوت بين الكاتبين في الاعتماد على هذا العنصر. يليه عنصر الصراع الدرامى الذي أوضحنا من خلاله الصراع بين العاطفة والواجب الذي عايشه البطل داخل الروايتين. ثم انتهى البحث بعرض أهم النتائج التي خلصت إليها هذه الدراسة المقارنة.

وفي الختام، أرجو من الله أن أكون قد وُفّقت في عرض هذ البحث، الذي نأمل أن يكون إضافة إلى الدراسات المقارنة بين الأدب العربي والأدب الأردي، لكاتبين لا يختلفان فقط في الأدب الذي ينتميان إليه، ولكن يختلفان أيضًا في العقيدة والمذهب.

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب - جامعة عين شمس ٢٠١٧.

مقدمة:

يعد جرجي زيدان رائد الرواية التاريخية الحديثة؛ فبالرغم من وجود محاولات لكتابة الرواية قبله، إلا أنه يعد أول من أرسى دعائم فن كتابة الرواية التاريخية، وعمل على انتشاره، واشتُهر بكتابته للروايات التاريخية الإسلامية.وقد استطاع زيدان أن يكتسب برواياته التاريخية جمهورًا من القراء لا يحصى عددهم، من أصحاب الثقافات العالية ومن متوسطي الثقافة، وممن يجدون في الروايات متعة وتسلية. وقد تعرض زيدان للعديد من الهجوم؛ فقد اتهمه النقاد بمحاولة تشويه التاريخ الإسلامى.

أما قاضي عبد الستار؛ فهو من أبرز كتاب الرواية التاريخية الأردية المعاصرة، بعد تقسيم شبه القارة سنة ١٩٤٧م. كتب روايات تاريخية خالدة الذكر، هدف منها إلى إعادة إحياء مجد المسلمين وتاريخهم المشرق، وبث روح الجهاد في نفوس المسلمين، وتتجلى في رواياته التاريخية عودة الماضى، كما يتضح فيها أيضًا تصوير كثير من قضايا العصر، التي تساعد القارئ على فهم ورؤية قضايا عصره في مرآة الماضي.

وترجع أهمية هذا البحث إلى أنه يقف على عنصر من أهم عناصر نجاح الرواية، ألا وهو: "الحبكة". فالحبكة هي العنصر الرئيسى الذي تُبنى عليه أحداث الرواية، فيسلط الضوء على تلك الأحداث، علاوة على تسليط الضوء على الشخصيات، وتتبع ما تقدمه من أفعال.

ونظرًا لأهمية الحبكة في العمل الروائي؛ فقد أردنا أن نستثمرها في عقد دراسة مقارنة بين أدبين مختلفين (الأدب العربي، والأدب الأردي). حيث نقدم دراسة مقارنة بين روايتين تاريخيتين تحملان اسم (صلاح الدين الأيوبي)، الأولى–لكاتب مسيحي المذهب، هو جرجى زيدان، كتبها سنة ١٩١٣م. والأخرى–لكاتب مسلم الديانة، هوقاضي عبد الستار، والتي كتبها سنة ١٩٦٣م.

ويهدف هذا البحث إلى توضيح الفرق بين حبكة الروايتين، ومعرفة إلى أي مدى وُفّق كلٌّ من الكاتبين في صياغة حبكته، ومَنْ منهما استطاع إقناع القارئ بالأحداث وتسلسلها في روايته. والهدف الأهم هو أيُّ الكاتبين التزم بمعايير كتابة الرواية التاريخية التي تنص على عدم المغالاة في سرد الأحداث المتخيلة، فتطغى على الأحداث التاريخية أو تخفيها. فحين اختار الكاتبان أن يتصدر اسم (صلاح الدين الأيوبي) غلاف روايته، فهذا يعني أن الأحداث الرئيسة للرواية تدور حول هذا القائد الكردي المسلم العظيم، الذي استطاع أن يُخلّد اسمه بأحرف من ذهب في التاريخ الإسلامي، والتاريخ الأوربي في القرون الوسطى، بعد تصدّيه المستميت أمام الزحف الصليبي على بلاد المشرق، وهزيمته للصليبيين على أرض حطين، تلك الهزيمة التي استرد على إثرها بيت المقدس، وحرره من إيديهم بعد ما يقرب من قرن من الزمان على احتلال الصليبيين له.

وسوف نكشف، من خلال عقد مقارنة بين حبكة الروايتين، ما إذا كان الكاتبان قد وفقًا في صياغة حبكة روايته التي توضح سيرة هذا البطل، أو تلقي الضوء على شخصيته وملامحها التي ذكرها المؤرخون في كتب التاريخ.

وسوف يتبع البحث المنهج المقارن الذي يتوافق مع موضوع البحث؛ للوصول إلى الأهداف المنشودة من الدراسة، وتوضيحها.

وفي الختام، أرجو من الله أن أكون قد وُفّقت في عرض هذ البحث، الذي نأمل أن يكون إضافة إلى الدراسات المقارنة بين الأدب العربي والأدب الأردي، لكاتبين لا يختلفان فقط في الأدب الذي ينتميان إليه، ولكن يختلفان أيضًا في العقيدة والمذهب.

واعتمدت الباحثة على المصادر والمراجع الأردية والعربية والمترجمة ذات الصلة بموضوع البحث، كما اعتمدت في المقارنة والتطبيق على رواية " صلاح الدين " لـــ "قاضى عبد الستار " وهي باللغة الأردية، ورواية" صلاح الدين" لـــ " جورجى زيدان" باللغة العربية.

مدخل:

الحبكة:

الحبكة أو العقدة هي الإطار أو الخط الأساسي الذي يربط المواقف والأحداث في نسق متتابع بطريقة أو بأخرى، وبصرف النظر عما إذا كانت بسيطة أو معقدة مركبة [١]

والحبكة هي سلسلة الحوادث التي يقع التأكيد فيها على الأسباب والنتائج، فإذا قلنا مات الملك، وبعدئذ ماتت الملكة حزنًا عليه، فهذه حبكة [٢].

وقد عرفها الدكتور حامد عبد اللطيف، قائلاً: إنها أساس البناء الروائي؛ لأنها تشبه في أهميتها بالنسبة للرواية أهمية الهيكل العظمي للجسم البشري، فإنه يعطي الكائن البشري تكوينه، ويجمع أعضاءه كلها معًا [٣].

فهي في الحقيقة الهيكل الأساسي للقصة. فعلاوة على تقسيمها للأحداث وترتيبها، تقوم أيضًا بخلق نوع من الربط الداخلي والخارجي بين تلك الأحداث. ولذا فإنه من المعلوم أن وجودها أمر لازم في الرواية؛ نظرًا لطول أحداثها [٤].

والحبكة هي مجموعة الأحداث التي تقدمها الشخصيات، وهي التي تُلقي الضوء على كل الشخصيات والأحداث من مختلف الزوايا. ومن هذه الملاحظة، نجد أن الحبكة هي أهم جزء في الرواية، ولا يمكن تشكيل الرواية بدونها [٥].

وهي خطة الأحداث التي يوليها كاتب الرواية عنايته، وتتواجد في ذهنه منذ البداية، وتُبنى عليها فيما بعد جميع أحداث الرواية المشوقة [٦].

وتعد الوحدة والتسلسل أمرين ضروريين في بناء الحبكة [٧]. والفنان الناجح هو من يستطيع أن يربط الأحداث بعضها ببعض، مثلما تُنظم حبات اللؤلؤ في العقد [٨]؛ فالعلاقة بين السبب والمسبب وتنظيم القصة هو مايُسمّى الحبكة. فحبكة الرواية مثل عمر الإنسان، ينبغي عليها أن تُقدم بأسلوب فطري [٩].

وتنقسم الحبكة من الناحية البنائية إلى نوعين:

١. الحبكة المنظمة:

هي التي تربط بين أجزاء حكايتها الجزء تلو الآخر، ولا يوجد ضعف أو فصل بين أجزائها. وفيها يتعمق كاتب الرواية في كل أجزائها، ويُعد لها هيكلاً أساسيًّا من البداية، ويعرف خيوط حكايتها.

٢. الحبكة غير المنظمة (المفككة):

هي الحبكة التي تُبنى أجزاء حكايتها على أحداث مختلفة. وفيها يقل الربط المنطقي بين أجزائها[١٠].

أما على صعيد أصول الوحدة والاتحاد؛ فتنقسم الحبكة أيضًا إلى نوعين:

١. الحبكة البسيطة:

وهي الحبكة التي تكون بها حكاية أو قصة واحدة. لذا لا يوجد بها أي تعقيد أو مشاكل.

٢. الحبكة المركبة:

وهي الحبكة التي تحتوي على عدة حكايات. وهنا نجد سؤالاً: هل يظل الاتصال قائمًا بين تلك الحكايات مع ربط بعضها ببعض بقوة؟ والإجابة: أن أكثر الحبكات المركبة تصاب بالخراب؛ حيث لا ترتبط القصص المختلفة بعضها ببعض بقوة (١١).

أي أن الرواية التي تتناول داخلها قصة أو حكاية واحدة، هي التي تُسمى حبكتها بالحبكة البسيطة. أما الرواية التي تعتمد على أكثر من قصة، فتُسمّى حبكتها بالحبكة المركبة (١٢).

مكونات الحبكة:

تتكون الحبكة من: بداية تعرض من خلالها الخيوط التي تفترض وقوع أحداث متتالية. ثم وسط يستمد طاقته من الأحداث السابقة، ويدفع بأحداث جديدة إلى الساحة. ثم نهاية تتجمع فيها كل الأحداث السالفة، وتنصهر في بوتقة نهائية، ولا تتحمل أحداثًا أو مواقفَ تالية (١٣).

ولتوضيح مكونات الحبكة بشكل أوضح؛ نذكر التقسيمات التالية:

١-البداية:

والغرض منها تعريف المشاهدين وإمدادهم بالمعلومات التي تُسهّل عليهم فهم القصة. ففي البداية يرى المشاهد أشخاصًا لا يعرف عنهم شيئًا. وهنا لابد من الإشارة إلى أمر هام، وهو ضرورة أن تكون بداية القصة واضحة وجامعة؛ حتى تساعد المشاهدين على فهم الحبكة (١٤).

٢-القوة المحركة:

يقوم أساس القصة الدرامية بناءً على التصادم. ويمكن أن ينتج عن هذا التصادم ظهور بعض الأحداث التي تُقابل بحفاوة، أو ينشأ نزاع نتيجة محاولة إحدى شخصيات العمل من تحقيق أهدافها. فالإنسان في الحقيقة عبد لأهدافه، ويرى فيها منافعَ له، ويرى النقصان في غيره. وهذا هو أساس التصادم. وتبدأ القصة بناءً على هذا التصادم. ومن هنا، تظهر قضية الحق والباطل. ومن هنا، يصبح الشخص بطلاً للحكاية، ويمكن أن تنشأ العداوة بين فرد وآخر، أو بين فرد وجماعة، ويريد البطل أو أي شخص سحق المظالم. ويمكن أن تنشأ هذه العداوة بين الإنسان وذاته. ويقع التصادم بين النفس الأمارة والنفس اللوامة (١٥).

٣-النمو:

في هذا الجزء تبدأ الحبكة في التوسع. وتتولد أنواع مختلفة من الصعوبات والمشاكل، وتظهر قضايا مختلفة أمام الأعين. وينبغي على كاتب الدراما هنا أن يُراعي استخدام الأسلوب المنطقي فيعرض تقدم وتطور تلك الأحداث، ويلتزم الاختصار، ويتجنب الإطالة، وعليه أن يقوم بتوضيح هدف كل شخصية في هذه الأحداث. وعلاوة على ذلك، عليه الربط بقوة بين الشخصية والعمل الذي تؤديه في الحدث (١٦).

٤-الصراع:

يحصل أحد أفراد العمل الروائي أو مجموعة منهم على القوة في جزء معين من الحبكة، ويسيرون بالدلائل حتى يحصل هذا الشخص أو الجماعة على الفتح. لكن ينبغى على هذا الفتح أن يُصوَّر في أسلوب بسيط جدًّا، وأن يكون قد نما من الأحداث السابقة. فإذا قدم كاتب الدراما الصراع ظاهريًّا، فسوف نشعر بالنقصان وعدم النضوج في فنه.

ويمكن أن ينشأ الصراع بسبب حدث واحد أو عدة أحداث. وينبغي أن يظهر الصراع في الجزء المناسب من الحبكة [١٧].

٥-ختام العمل:

وفي هذاالموقع: ينتهي الصراع المتبادل بين الشخصيات، وتنتهي الحبكة على حادثة سعيدة أو مؤلمة. فحين تنتهي الحبكة على حادثة سعيدة، تُزال جميع العقبات من طريق البطل، ويصبح طريقه مُعَبَّدًا، وتنتهي شكوكه تجاه الأشخاص الآخرين. وحين تنتهي الحبكة على واقعة مؤلمة، تظهر نهاية كل تلك القوى التي كانت سبب الشرور والفساد.

وعلى كل حال، ففي النهاية تتضح الحبكة، وتظهر النتيجة أمام المشاهدين الذين انتابتهم الأوهام والشكوك من بداية الحبكة [١٨].

٦-النهاية:

النهاية هي الجزء الأخير من الحبكة، وفيها ينتهي الصراع الدرامي، وتظهر النتيجة. وأحيانًا لا تظهر النهاية في بعض الأعمال الدرامية، بل يتركها الكاتب لخيال المشاهدين. ويحب نقاد العصر الحالي هذه الطريقة، ويبنون نظريتهم في هذا الأمر على أن الدراما ظلال للحياة الواقعية. وأحيانًا لا تظهر النهاية في الحياة الواقعية، فبعد انتهاء حادثة تبدأ حادثة أخرى في الظهور؛ لهذا ترى الدراما عدم ضرورة إظهار النهاية، لكن يضطرب قلب المشاهدين من أجل رؤية النهاية. لذا فإن أكثر كتّاب الدراما يُظهرون نهاية القصة بالطريقة الواضحة [١٩].

وتُضفي الحبكة الروائية جوًّا من الغموض الذي يدفع إلى إثارة القارئ وتشويقه نتيجة لإحكام الصنعة ورسم المشاهد ببراعة. وهي تستلزم التركيز والقصر؛ فلا يكثر الكاتب من استخدامها؛ حتى لا يشتت انتباه المتلقي، ولا يبالغ في الأحداث الجانبية التي ترتبط بها. كما عليه أن يضمنها السير الذي يستدعي التشويق والإثارة، على ألا يكون ذلك غامضًا كل الغموض، فيضلل القارئ [٢٠].

فهي ضرورة لا غنى عنها؛ لتشويق المتلقي، وإثارة وجدانه، وتحريك خياله. فهو يتتبع الأحداث؛ لا ليعرف ماذا بعد، وإنما ليدرك معنى لماذا؟ وكيف؟ وبالتالي يستقطب الروائي اهتمام قارئه فكرًا وشعورًا وخيالاً [٢١].

ويربط روجر هيئكل بين الحبكة وعنصر التشويق قائلاً: "إن الشغف بالقصة الجيدة، بما تتضمن حيوية الأحداث السريعة، وبما تفعم به مواقفها، من عواطف جياشة، هو سر تعلقنا بالكثير من الكتب"[٢٢].

وحبكة القصة أو الرواية الناجحة هي التي تقوم على تخطيط جيد للأحداث، يبدأ من البداية، وتتنامى الأحداث، ويتأجج الصراع حتى القمة. ويكون هذا الصراع إما عن طريق التناقض في الأحداث والمواقف، أو التكرار أو التضاد [٢٣].

وينمو الصراع مع نمو الحركة في القصة، حتى تصل إلى أقوى الحوادث إثارة. وهي عادة تتمثل في أشد المواقف تعقيدًا في عملية البناء، ثم تبدأ الأشياء تتضح في مرحلة التنوير، وهذه المرحلة تفتح طرقًا مختلفة إلى نهاية القصة، وهي في القصص ذات النهاية السعيدة تزيل العراقيل التي تعيق الوصول إلى الهدف الرئيس [٢٤].

ونستخلص مما سبق أنه لابد للكاتب أن يراعي اتساق النتائج مع معطيات الأحداث وطبائع الشخصيات. ومن ثم، ليس من الجائز له أن يعول على القدر أو الصدفة كوسيلة؛ لتحقيق الترابط بين جزيئات الأحداث وتطويرها؛ حتى لا يقع في منزلق فني

يؤخذ عليه؛ حيث إنه من المتعارف عليه في النقد الأدبي الحديث: "إن الفن عادةً لا يعتد بالأحداث التي يسببها القدر أو الصدفة أو غير ذلك، مما قد يلجأ إليه الكاتب كمبرر للتغيير فيمجرى الأمور بحيث تختلف عما بدأتعليه"(٢٥).

وفيما يلي عرض للحبكة بين روايتي صلاح الدين الأيوبي، لكلٍّ من الكاتبين قاضي عبد الستار، وجرجي زيدان.

عندما نستعرض الخطوط العامة لرواية (صلاح الدين الأيوبي) للكاتب قاضي عبد الستار، نجدها تقوم على الأحداث التالية:

أولاً: اختيار فترة تاريخية معينة، تبدأ من عهد الحرب الصليبية الثانية، حتى مشارف الحرب الصليبية الرابعة، تتخللها أحوال المسلمين المزرية في عهد الحكم الصليبي، واستفحال الصليبيين في الأراضي الإسلامية داخل بلاد الشام قبل حكم صلاح الدين لمصر. ثم استعرض الكاتب حياة السلطان صلاح الدين، بداية من تقلده منصب رئاسة وزراء مصر، ثم قضاءه على الخلافة الفاطمية، وتقلده منصب سلطان مصر بعد وفاة الخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين، وجهاد السلطان المضني ضد الصليبيين وحكامهم في عدة معارك مختلفة، كان من أهمها إلحاق هزيمة ساحقة بهم في معركة حطين، واسترداد بيت المقدس، وتنتهي هذه الفترة التاريخية بوفاة السلطان صلاح الدين.

ثانيًا: قصة غرامية نشأت بين يوسف نجم الدين أيوب أي صلاح الدين، وملكة فرنسا وزوجة لويس السابع الملكة إليانور. هذه القصة التي كانت عاملاً أساسيًّا يقوم عليه البناء الفني للرواية، وقد ظل طيفها يلازم القارئ حتى الصفحات الأخيرة من الرواية. وقد نشأت هذه العلاقة الغرامية نتيجة تنكّر يوسف صلاح الدين في زي راهب مسيحي، والذهاب إلى معسكر الصليبيين على شواطئ نهر زر أفشان، وهناك تضمه الملكة إليانور للعمل ضمن كتيبة حرسها الخاص، وتتطور الأحداث حتى تكتشف حقيقة شخصيته، وأنه مسلم، فتطلب منه الرحيل، وتساعده على الهرب والعودة إلى دمشق مدينة مولده، ويظل يوسف متنكرًا في زي الراهب في الربع الأول من الرواية في طريق عودته إلى مدينة دمشق. وتقع عدة أحداث مختلفة ومشوقة في تلك الفترة أثناء مروره على عدة مدن في طريق عودته إلى دمشق.

ثالثًا: تعرض السلطان صلاح الدين لمحاولات اغتيال على أيدي الحشّاشين (٢٦) المعروفين بالباطنية أو الإسماعيلية، بزعامة شيخهم شيخ الجبال، وجهود السلطان للتخلص من تلك الطائفة والقضاء عليها وإخضاعها تحت سلطانه.

رابعًا: تنكر السلطان صلاح الدين في هيئة أخيه (الملك العادل)، والذهاب لتلبية دعوة ريتشارد للقاء بالملك العادل واللقاء به في معسكره، وهناك التقى بجين ابنة الملكة إليانور المتنكرة في زي خادمة؛ حتى تستطيع رؤية الملك العادل والتعرف به عن قرب. وفي هذا اللقاء: يلتقي الملك العادل (صلاح الدين) بالأخت الكبرى لريتشارد التي تحاول استمالته إلى التحالف معهم والزواج من أختهم الصغرى جين، على أن يمنحهم السلطان صلاح الدين حكم بيت المقدس إلى جانب الملك العادل سويًّا.

خامسًا: استدعاء السلطان صلاح الدين لأفراد البلاط السلطاني، وإلقاء وصيته عليهم، حينما شعر بدنو أجله.

تقوم الرواية –من حيث الأحداث–على دعامتين رئيستين، هما: الحدث في مصر، والحدث في بلاد الشام. وهما لاينفصلان عن بعضهما البعض، بل إن الأحداث تتوالى توالِيًّا منطقيًّا في نسقها الطبيعي نظرًا لحياة السلطان صلاح الدين التي راوحت أحداثها بين مصر التي شغل فيها منصب رئيس الوزراء، حتى استطاع القضاء على الخلافة

الفاطمية، وتنصيب نفسه سلطانًا على مصر بعد وفاة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين. وبلاد الشام التي دار فيها كفاحه وجهاده ضد الصليبيين والحشاشين، والتي نشأت على شواطئ نهر زر أفشان بها قصة العشق الوهمية بين يوسف صلاح الدين، وبين الملكة إليانور زوجة لويس السابع ملك فرنسا، التي نسجها الكاتب من خياله، وجعلها عنصرًا أساسيًّا في بناء أحداث روايته؛ ليمنح الرواية عنصر التشويق والإثارة.

ونظرًا لمحاولة الكاتب النجاح في إخراج الرواية في شكلها التاريخي، احتلت الأحداث في بلاد الشام النصيب الأكبر والمشوق؛ ففيها دارت عدة معارك بين السلطان والصليبيين، كان أعظمها معركة حطين وفتح السلطان بيت المقدس وتطهير أراضيه من الصليبيين، بالإضافة إلى عدة معارك أخرى، منها ما هو خيالي جاء بما يتماشى مع السياق الدرامي للرواية، ومنها ما هو حقيقي مثل فتح الكرك. بالإضافة إلى معاركه ضد الحشاشين المتمثلة في فتح قلعة مصياف معقل شيخ الجبال زعيم هذه الطائفة، وإخضاعها وإخضاع زعيمها تحت سيطرة السلطان صلاح الدين.

مهّد قاضي عبد الستار لأحداث روايته بعرض لمدينة دمشق الزاهرة في عهد السلطان صلاح الدين في الحاضر، وما تضمه أسواقها من خيرات وجه الأرض، وتوافد البشر إليها من جميع الأجناس. ثم يلج الكاتب مباشرةً إلى أحداث الرواية بمجيء أسقف من الغرب يطلب رؤية السلطان صلاح الدين، حاملاً إليه رسالة شخصية من الملكة إليانور. كانت هذه الرسالة هي بداية عقدة الرواية؛ ففيها تُذكّره بوداعها له قبل واحدٍ وأربعين عامًا على شواطئ نهر زر أفشان، وتذكرها لنظراته التي نظرها إليها أثناء ذلك الوداع، تلك النظرات التي لا تغيب عن بالها أبدًا. ثم تطلب منه نجدتها وإنقاذ ابنها الملك ريتشارد ملك إنجلترا الذي وقع أسيرًا لدى ملك ألمانيا. فهل سيُلبّي السلطان طلب حبيبته، أم سيتجاهل طلبها؟ هو السؤال الذي يتبادر إلى ذهن القارئ، وهو ما ستكشفه الأحداث بالتوالي.ومن هنا، يبدأ الكاتب من خلال السلطان في استرجاع ذكريات الماضي، وتبدأ الأحداث تسير في نسقها الطبيعي، حتى تعود إلى الحاضر مرة أخرى.

بعد قراءة السلطان للرسالة، تذكر فترة شبابه المليئة بالحمية والحماس، التي كانت في عهد الحرب الصليبية الثانية، وهي الفترة التاريخية التي تبدأ منها أحداث الرواية. في هذه الفترة كانت مدينة دمشق تعاني من استفحال الصليبيين على أراضيها، وكان مسلموها يعانون من اضطهاد وقهر الحكام الصليبيين لهم، فكانت المدينة أشبه بمشفًى كبير، والناس أشبه بالظلال التي تسحقها أقدام المارة. يذهب يوسف صلاح الدين إلى والده نجم الدين أيوب، ويرى الفزع على وجوه إخوانه من قوة الصليبيين، فيقضي الليل مُفكّرًا، ثم يذهب في الصباح إلى صديقه المسيحي قحطان ابن أكبر أساقفة دمشق، فيطلب منه مساعدته على التنكر في زي راهب مسيحي، ومساعدته على الذهاب إلى معسكر الصليبيين. فيساعده قحطان على التنكر، وينطلقان سويًّا تجاه معسكر الفرنجة على شواطئ نهر زر أفشان، وهناك تقوم امرأة مسلحة من حارسات ملكة فرنسا الملكة إليانور بإلقاء القبض عليهما، واصطحابهما إلى الملكة. كانت الملكة أشبه بالحورية، تجلس على صخرة، فأخذت في استجواب يوسف المتنكر في زي راهب مسيحي، فأخبرها بأنه يُدعى جون، وأنه قادم من دمشق، فعَلا السرور وجه الملكة واصطحبتهما معها إلى مقرها، ثم طلبت من جون العمل ضمن حرسها الخاص، ووافق جون على طلب الملكة.

ثم تبدأ الأحداث تتوالى تدريجيًّا، وفي أحد الأيام تخرج الملكة مع خواصها الفرنسيين للصيد في جبال لبنان، ويخرج معها جون على جواده الأبلق، وداخل الغابة

المعتمة تفرق الجنود عن الملكة، فأسرع جون إليها، وظل بصحبتها، وبدأت مشاعر الحب ونظرات العشق تتبادل بينهما، ثم يظهر جون شجاعة مفرطة في القضاء على أسدٍ أمام أعين الملكة، ويتعرض لجرح في ساعده، فتتنازل الملكة عن مكانتها وتجلس جانبه، وتبدأ في تنظيف جرحه، ثم يظهر الجنود بحثًا عن الملكة، ويعود الجميع إلى مقر الملكة ، وهناك بداخل إحدى الخيام تعتني الملكة بجون، وتقضي معه إحدى الليالي بين أحضانه. وبسبب شجاعة جون التي أبداها في حماية الملكة، قام لويس السابع بتنصيبه فارسًا. وفي أحد الأيام، يخرج جون بصحبة الملكة والملك لويس والإمبراطور كونراد؛ لشن غارة على مدينة دمشق، وكان الكاتب يعنى من هذه الغارة الحملة الصليبية الثانية، ولكن استطاع جون أن يرسل رسالة تحذير لمدينة دمشق، فباءت غارة الصليبيين بالفشل. وأثناء أحداث تلك الغارة، تخرج الملكة بصحبة جون وبعض جنودها للبحث عن الماء، فتكشف حقيقة جون حين تراه يُصلّي. فتتهمه بالغدر والخيانة.

بعد عودة جون والملكة إلى مقرها، اعترف جون للملكة بأنه يُدعى يوسف، وأنه ابن حاكم مدينة دمشق. فتعرض الملكة إليانور على جون الزواج منها وعرش وتاج مملكتها الخاصة مملكة الأينتكــ، وأن يظل متخفيًّا، لكنه لم يجب طلبها. فعرضت عليه الذهاب معه إلى دياره على أن يمنحها حرية الدين والعقيدة، لكنه ظل صامتًا، ولم يجبها. ثم يخرج الملوك الصليبيون للهجوم على دمشق. وهنا تطلب الملكة إليانور من يوسف المغادرة. وقامت بمساعدته على الرجوع إلى بلاده؛ خوفًا من أن يتعرض للقتل، وودعته على شاطئ نهر الأردن.

ثم تتوالى الأحداث بشيء من السرعة في رحلة عودة يوسف إلى دمشق، وهو لايزال متنكرًا في زي راهب مسيحي. مر بمدينة شابك، ومنها إلى الكرك، والتقى حاكمها المسيحي رينولد، وداخل منزل رينولد استمع إلى أغنية حزينة من ماريا التي أوضحت كلماتها عن معاناة الفتيات المسلمات اللواتي يقعن سبايا في أيدي الصليبيين، والشباب المسلمين الذين يبيعون أنفسهم للحكام المسيحيين؛ خوفًا من بطشهم. فأخذ يعد الخطة لتذكير إخوان هذه المطربة بلذة السيوف، ثم انتقل جون إلى مدينة عسقلان، ورأى ما يعانيه المسلمون من ذل ومهانة، وشهد واقعة هجوم المسيحيين على المسلمين الأبرياء بمدينة عسقلان، وإشاعة القتل بينهم؛ ادِّعاءً منهم بقيام أحد المسلمين بتمزيق كتاب الإنجيل. ثم توجه جون إلى بيت المقدس، ورأى تدنيس الصليبيين للمساجد، فتوقف جون أمام الصخرة المقدسة، وأقسم أن يُطهِّر بسيفه هذه الصحيفة المقدسة.

ثم ينتقل الكاتب بالأحداث بشكل مفاجئ، فيقفز بها إلى وجود يوسف صلاح الدين في مصر، وشغله منصب رئاسة وزراء مصر دون توضيح ملابسات ذلك الحدث. ثم يعرض عليه أخوه وقائد الجيوش الملك العادل، وأمير الشرطة طغرل، والقاضي عماد الدين إحكام قبضته على مصر في ظل ضعف خليفتها المريض الخليفة العاضد. وبالفعل يفرض يوسف سيطرته على حكم مصر، ويُنصِّب نفسه سلطانًا عليها بعد وفاة الخليفة العاضد.

ثم تبدأ الأحداث في التوالي؛ لتوضح جهود صلاح الدين لترسيخ أقدامه، وإعلاء كلمة الإسلام، وإعادة الحكم والهيبة للمسلمين من جديد، والقضاء على الصليبيين، وتطهير الأراضي الإسلامية، فبدأ بفتح مدينة حلب بعد وفاة صاحبها نورالدين محمود زنكي.

ثم يتعرض السلطان صلاح الدين لمحاولات اغتيال على أيدي فدائيين حشّاشيين، فينطلق السلطان لفتح قلعة مصياف، فيفتحها، ويخضع شيخ الجبال تحت سيطرته. ثم ينطلق تجاه الكرك؛ للقضاء على حاكمها رينولد، فيفتحها، إلا أن رينولد قد استطاع

الهرب. ثم يقفز الكاتب بالأحداث إلى حرب حطين العظيمة، وقدم وصف تفصيلى لها، والتي يُلحق فيها بالمسيحيين هزيمة ساحقة، ويُلقي فيها القبض على بلدوين ملك أورشليم، ورينولد حاكم الكرك، ويقوم بقطع رقبته ويفتح أبواب بيت المقدس، ويقوم بتطهيره مما لحقه من تدنيس على أيدي الصليبيين. ثم تتوالى بعض الأحداث التي لم يَخُضْ الكاتب في ذكر تفاصيلها، مثل هزيمة مدينة عكا، وهدم السلطان لمدينة عسقلان، حتى الوصول إلى أحد الأحداث الهامة، وهي تنكر السلطان في هيئة أخيه الملك العادل، والذهاب لتلبية دعوة الملك ريتشارد للملك العادل نائب السلطنة وأمير الجيوش الإسلامية. ثم تتوالى الأحداث فتقع حرب أرسوف ويقدم الكاتب وصف تفصيلى لأحداث معركتها، ثم معركة يافا، ثم يقع حدث تنكر الأميرة جين في هيئة قائد مسيحي، ووقوعها في أسر السلطان صلاح الدين.

تتوالى الأحداث، حتى تتوقف حالة استرجاع الذكريات، ويعود بنا الكاتب إلى زمن الحاضر مرة أخرى، فيستدعي السلطان صلاح الدين الأسقف الذي أحضر إليه رسالة الملكة إليانور، فيتضح له أنه صديقه المسيحي قحطان، الذي ظل يعمل في خدمة الملكة إليانور.

هذا وتصل الأحداث إلى ذروتها بعد أن يعود بنا الكاتب إلى الحاضر مرة أخرى من خلال حديث السلطان صلاح الدين مع قحطان، الذي يوضح له مدى المعاناة التي واجهتها الملكة إليانور، وما تعرضت له من قصص مسيئة على لسان الفرنسيين بسبب علاقتها بالسلطان بعد فراقه، وكيف أنها لم تستطع نسيان تلك الأوقات التي قضتها بصحبته على شواطئ زر أفشان، وأنه شَعر من وراء حديثها بأنها تتمنى من السلطان أن يغزو أوروبا، ويقضي على ملوكها، ويجلس على عرش إنجلترا.

يتمكن المرض من السلطان، وتزداد العقدة تعقيدًا، حيث يظل السلطان مترددًا بين غزو أوروبا، أو الرجوع عن هذا الأمر؛ فهو لم يتعود على إشهار سيفه، إلا من أجل الإسلام، ولا يريد أن يُنهي سنين كفاحه بإشهار سيفه من أجل محبوبته، ويتظاهر بأنها من أجل إعلاء راية الإسلام، على الرغم من تشجيع الملك العادل وقاضي القضاة له على القيام بهذه الغزوة، وخوض حرب صليبية رابعة في أوروبا نفسها.

ثم تتوالى عدة أحداث من أجل السياق الدرامي، منها: خروج السلطان على الرغم من شدة مرضه للقاء قافلة الحجاج المسيحيين، إلى أن اشتد عليه المرض، وتولي الملك العادل إدارة شئون البلاد بدلاً منه. وكان السلطان قد بدأ يفقد الوعي من شدة المرض، ولكنه كان لايزال يفكر في طلب الملكة إليانور، وغزو أوروبا. وقد علم الجميع بمرض السلطان، وترقبت دمشق وقوع صاعقة خبر وفاة السلطان، وخاصة بعد استدعاء السلطان لأفراد البلاط السلطاني وإلقاء وصيته. وبينما كان السلطان في اللحظات الأخيرة من حياته، وكان قاضي القضاة يتلو القرآن الكريم بجانبه، فتح السلطان عينيه، فتخيل أنه يرى أمامه قحطان واقفًا، يتوسل منه أن يصدر قراره بغزو أوروبا، إلا أن السلطان قد فارق الحياة دون إصدار هذا القرار، وترك الأمر لمن يخلفه.

"..... عندما أنزل الملك العادل الميت إلى القبر، أخرج الملك العزيز صف أولئك المماليك الذين نشأوا في ركاب سلطان المسلمين الخاص، والذين نال أولادهم شرف الإطاحة بجيوش جنكيزخان فاتحة العالم بعد نصف قرن، وملؤوا أزقة القاهرة برقاب المغول المغرورين. رفع الملك الأفضل ذلك السيف في يده، والذي كان قد ظل معلقًا جانب السلطان ستة وعشرين عامًا يحمي المسلمين ويزود عنهم. ولم تجد سيوف المسيحية أمام سطوته إلا التسليم وطلب المأوى، وهكذا استرد الصحيفة الحجرية العظيمة(الصخرة)

الضائعة منذ قرن من الزمان. قبَّل قبضة السيف الهلالية المصنوعة من الحديد، وأمسك بغمده الجلدي ذي اللون الأصفر، واستلّ السيف من غمده من أجل الزيارة الأخيرة. سقطت أمام الأعين الغارقة في الدموع رقعة الورق الرفيعة الطويلة. تقدم الملك العزيز شاهرًا السيف بهذا الشكل، ووضعه جانب سيده. تلك الرقعة الورقية التي كانت قد جاءت إلى دمشق من أجل فتح باب جديد في تاريخ أوروبا، وماتت وسُحقت تحت الأقدام التي لا تعلم بوجودها مثلما تموت وتُسحق الشعوب تحت أقدام التاريخ (٢٧)".

وهكذا نجد قاضي عبد الستار لم يحل عقدة روايته في نهاية أحداثها، بل ترك لنا نهاية روايته مفتوحة، ولم يحل عقدة الرواية، ولم يجب على تساؤلات القارئ، بل جعل القارئ يظل في حيرة من تساؤلاته. فهل يا تُرى سوف يقوم مَن يخلف السلطان المرحوم بإصدار قرار لغزو أوروبا، وهو لا يعلم شيئًا عن تلك الرسالة التي جاء بها قحطان سرًّا إلى السلطان، والتي كان السلطان يضعها داخل غمد سيفه، وسحقتها الأقدام حينما قام الملك العزيز ابن السلطان بتجريد السيف من غمده ووضعه جانب السلطان، فوقعت الرسالة من غمد السيف دون أن يعلم أحد بوجودها. فهل يا تُرى سيقوم الخليفة بإصدار القرار الذي تردد السلطان في إصداره، ويغزو أوروبا، ويلبي رغبة الملكة إليانور التي لا يعلم عنها شيئًا؟ فهو إن قام بغزو أوروبا، فسيغزوها فقط من أجل رفع راية الإسلام، على العكس من السلطان صلاح الدين الذي تردد في إصدار هذا القرار؛ خشية أن يصدره بدافع حبه للملكة، فترك الأمر شورًى لمن يخلفه، وهم لا يعلمون شيئًا عن تلك الرسالة الخاصة؟!

أما بالنسبة للخطوط العامة لرواية صلاح الدين الأيوبي للكاتب جرجي زيدان، فهي تقوم على الأحداث التالية:

أولاً: اختيار فترة تاريخية تبدأ منذ تقلد صلاح الدين منصب رئيس وزراء مصر، ثم توليّه حكم مصر بعد وفاة الخليفة العاضد، وتنتهي تاريخيًّا باستعداد السلطان لفتح بيت المقدس.

ثانيًا: قصة غرامية طويلة نشأت بين ست الملك وعماد الدين أحد رجال صلاح الدين، وبسبب هذه العلاقة تنشأ أحداث عديدة ومشوقة، وتستمر هذه العلاقة حتى الصفحات الأخيرة من الرواية، وتنتهي هذه العلاقة بزواج الاثنين.

ثالثًا: سعي أبي الحسن للزواج من أخت الخليفة العاضد سيدة الملك؛ حتى يخلف الخليفة على كرسي العرش.

رابعًا: مؤامرات متعددة للتخلص من صلاح الدين، يتعرض لها السلطان من خلال تدبير أبي الحسن، تستمر إلى ما قبل الربع الأخير من الرواية.

خامسًا: رحلة عماد الدين من مصر إلى قلعة مصياف؛ للتخلص من زعيم الحشاشين راشد الدين سنان؛ اعتقادًا من السلطان صلاح الدين بأن راشد الدين قد أرسل إليه من يقتله، فبادر عماد الدين بالتضحية بنفسه والذهاب في هذه الرحلة المحفوفة بالمخاطر؛ للقضاء على ذلك الشيخ. وفي قلعة مصياف، تقع عدة أحداث مثيرة وعجيبة يراها عمادالدين بعينه، فيكاد يتملكه الشعور بصدق حقيقة ما يُشاع عن كرامات راشدالدين.

تقوم الرواية من حيث الأحداث على دعامتين رئيستين، هما: الحدث في مصر، والحدث في بلاد الشام. ونظرًا لأن جرجي زيدان لا يهتم بكتابة رواية تاريخية، بل يقوم بكتابة رواية مشوقة، لذا اعتمد على استخدام عنصر التشويق والخيال، دون الاعتماد على الأحداث التاريخية، أو الخوض في تفاصيلها. لذا نجد أن أحداث روايته –التي تربو على

٣٥٠ صفحة–تقوم على دعامتين أساسيتين: الأولى–هي الأحداث القائمة على رصد الفتن والدسائس التي أخذ يحيكها شخص خيالي من نسج خيال المؤلف، هو أبو الحسن؛ للزواج من سيدة الملك، والقضاء على صلاح الدين، وكان هذا الجزء من الأحداث يقع في مصر. والدعامة الثانية –هي الأحداث في بلاد الشام، وبطلها هو الشاب عمادالدين الذي خرج في رحلة لقلعة مصياف؛ للقضاء على راشدالدين سنان زعيم الحشاشين.

حاول جرجي زيدان الربط بين أحداث الرواية؛ حتى لا تفقد روايته عنصر التماسك الدرامي، إلا أن الخلل قد أصابها، وخرجت الأحداث في شكلٍ أشبه بالمشاهد، لا ربط بينها، وأحيانًا تبدو مثل قفزات ليس لها ما يبررها. وكان ذلك نتيجة كثرة الأحداث الفرعية، مما كان يدفع الكاتب إلى اللجوء إلى القطع في الأحداث والانتقال من حدث إلى آخر في محاولة منه لربط الأحداث بعضها ببعض، وهو ما كان يعمل على الفصل بين الأحداث، لا الربط بينها. فعلى سبيل المثال: يبدأ الكاتب أحداث روايته بخروج العاضد لاستقبال نجم الدين والد صلاح الدين، ويعود الجميع إلى قصر الخليفة، ويجلسون في جلسة رسمية، ثم ينصرف صلاح الدين ووالده إلى المنظرة المخصصة لاستقبالهم [٢٨]. ويأخذنا الكاتب إلى منحنى آخر، حيث يبدأ في وصف المنظرة، ثم جلوس نجم الدين مع صلاح الدين في خلوة خاصة، ويدور بينهما حديث عن طمع صلاح الدين في حكم مصر، ثم يعود بنا الكاتب مرة أخرى ليقص علينا ما حدث للعاضد بعد أن انصرف نجم الدين وصلاح الدين، وذهبا إلى المنظرة، فيقول:

"أما الخليفة العاضد، فقد تركناه في قاعة الذهب بعد خروج نجم الدين وابنه، ولم يبق معه إلا أبو الحسن....."[٢٩]. ويبدأ الكاتب في قص الأحداث التي دارت بين الخليفة وأبي الحسن.

وعلى سبيل المثال أيضًا: يقص علينا الكاتب حوارًا طويلاً بين كلٍّ من العاضد وأخته سيدة الملك والشريف الجليس، وينتهي الحوار بانصراف سيدة الملك والشريف الجليس كلاً إلى غرفته[٣٠]، فينتقل الكاتب بنا إلى أحداث جديدة جمع فيها بين الشريف الجليس وأبي الحسن في صباح اليوم التالي[٣١]، دارت حول الحوار الذي دار بين الشريف الجليس والخليفة العاضد وأخته سيدة الملك، ثم يعود بنا الكاتب مرة أخرى للحديث عن سيدة الملك بعد أن انصرفت وذهبت إلى غرفتها مساء أمس؛ ليقص علينا أحداثًا جديدة من خلال حوار طويل دار بين سيدة الملك وحاضنتها ياقوتة ، عما دار بينها وبين أخيها الخليفة العاضد من حوار، فيقول:

"أما سيدة الملك، فإنها ذهبت إلى غرفتها، فلقيتها هناك حاضنتها الخاصة، وأخذت في مساعدتها على نزع ثيابها استعدادًا للنوم..."[٣٢].

وهكذا يظل جرجي زيدان على مدار كل صفحات روايته ينتقل من حدث إلى حدث، وينتقل من حدث جديد إلى آخر قديم؛ في محاولة منه لربط جزيئات الأحداث ببعضها، وهو ما يؤدي إلى تشتيت القارئ، وتفكك البناء الدرامي للرواية.

مهّد الكاتب لأحداث روايته بعنوان فذلكة تاريخية، استعرض فيها الحال السياسية للعالم الإسلامي بعد دخول مصر في حوزة الفاطميين، وتطور الأحداث التي جعلت الخليفة العاضد يطلب المساعدة من صاحب الشام نورالدين محمود زنكي، بسبب تدخل وزرائه في شئون البلاد، منهم وزير يُدعى شاور. فأرسل نورالدين إليه أسدالدين شيركويه وابن أخيه يوسف بن نجم الدين وهو صلاح الدين، وبعد قضائهم على شاور، عَمِلَ أسد

الدين شركويه في منصب رئيس الوزراء، وبعد وفاته عام ٥٦٤هـ، خلفه صلاح الدين في هذا المنصب.

وبعد تلك الفذلكة التاريخية التي قدمها جرجي زيدان عن الحال السياسية في مصر، التي استعرض فيها على مدار خمس صفحات أحوال الدولة الفاطمية، منذ توليها حكم مصر، بدايةً من المعز لدين الله، نهايةً بالخليفة العاضد، ولج الكاتب إلى أحداث روايته التي يبدؤها بتقديم وصف مفصل لموكب الخليفة العاضد الخارج من قصره لاستقبال نجم الدين أيوب والد وزيره يوسف صلاح الدين، وحينما يختلي نجم الدين بولده يؤكد الكاتب فيما يدور بينهما من حديث على فكرة طمع صلاح الدين في فرض سيادته على مصر ونزعها من يد الخليفة العاضد، بينما يختلي العاضد بأحد أقربائه، هو أبو الحسن الذي يسعى جاهدًا للتخلص من صلاح الدين، شرط الزواج من سيدة الملك أخت الخليفة العاضد، ويؤكد الكاتب في هذه الأحداث على فكرة واحدة، هي كراهية العاضد والفاطميين للأكراد المتمثلين في صلاح الدين.

ويحاول العاضد استمالة أخته لقبول هذا الزواج، ولكنها تصر على الرفض لشكها في نسب أبي الحسن للأسرة العبيدية. ومن هنا، تتوالى الأحداث التي يظهر فيها أبو الحسن، ويأخذ في تدبير المكائد للزواج من سيدة الملك، التي لا تفلح، فيسعى بعد ذلك في تدبير المكائد للخلاص من صلاح الدين. وتتوالى الأحداث التي تكشف عن تعلق سيدة الملك بشاب من خاصة رجال صلاح الدين هو الشاب عمادالدين، الذي أنقذها يوم هجوم العبيد على قصر الخلافة، وقد شعر صلاح الدين ووالده بقوة وشجاعة هذا الشاب، فقربه إليه، وجعله في منزلة الصديق، يرافق السلطان أينما وجد وأينما ذهب. ثم تبدأ مكائد أبي الحسن للزواج من سيدة الملك، فيحتال على عيسى الهكاري أحد الأصدقاء المقربين لصلاح الدين، ويجعل الهكاري يشير على صلاح الدين بالزواج من سيدة الملك؛ حتى يتسنى له الحصول على كرسي الخلافة بعد وفاة العاضد، فلا تجد سيدة الملك مخرجًا سوى الزواج من أبي الحسن؛ حتى لا تقع في أيدي الكردي صلاح الدين. غير أنها تصر على رفض إلحاح أخيها في زواجها من أبي الحسن، وتفضل أن تكون بين يدي هذا الكردي صلاح الدين، على أن تكون زوجة لأبي الحسن هذا.

ثم يتعرض صلاح الدين لأمر غريب؛ حيث يستيقظ ليجد جواره خنجرًا ملوثًا بالدماء، ورسالة من شيخ الجبال زعيم الحشاشين، تحمل في معناها تهديدًا لصلاح الدين بالقتل، فيبادر عماد الدين بكل قوة وشجاعة، ويطلب من صلاح الدين ووالده نجم الدين السماح له بالخروج من مصر إلى قلعة مصياف؛ للقضاء على ذلك الشيخ الذي اشتُهرت طائفته بالقتل والفتك. ويخرج عماد الدين في رحلة إلى قلعة مصياف بعد أن يلتقي بسيدة الملك، التي طلبت من حاضنتها ياقوتة أن ترسل إليه من يستدعيه إليها في قصر النساء، وحينما ذهب إليها عبّرت له سيدة الملك عما تُكنّه له من مشاعر الحب، لكنه لم يستطع أن يبادلها تلك المشاعر؛ نظرًا للمهمة المحفوفة بالمخاطر، والتي يذهب إليها في نفس الليلة التي استدعته فيها الأميرة سيدة الملك. وهنا تبدأ عقدة الرواية التي تقف فيها الأقدار والظروف أمام هذا الحُب الذي كان شبه مستحيل؛ إذ لا يستطيع عماد الدين مبادلتها نفس المشاعر نظرًا للمهمة التي يخرج إليها، علاوة على معرفته برغبة سلطانه في الزواج من سيدة الملك؛ حتى يكون له عرش الخلافة بعد وفاة أخيها العاضد. فما سيكون مصير هذا الحُب؟ وهل سيكتب للحبيبين الالتقاء سويًّا؟ أم ستقف الظروف والأقدار أمام هذا الحُب وتحول دون استمراره؟ كل هذه الأسئلة وغيرها هي ماتتبادر إلى ذهن القارئ، وهي ما ستكشفه لنا الأحداث المتتالية.

تتوالى الأحداث، ويتمكن المرض من العاضد الذي أوشك على الموت، فيشير نجم الدين على ولده صلاح الدين بضرورة الاستعداد لنزع البلاد من أيدي الفاطميين بعد موت خليفتهم، فيصدر صلاح الدين الأمر بفرض الحراسة على القصر الكبير قصر الخلافة، والاستعداد للقبض على أهل الخليفة وعلى رأسهم أبو الحسن الذي كان يسعى لكرسي الخلافة، وكان يجعل عيسى الهكاري يتوسط له عند صلاح الدين؛ للحصول على الخلافة بعد العاضد، مع ترك مقاليد الحكم في يد صلاح الدين. يفر أبو الحسن قبل إلقاء القبض عليه، بعد أن حذره غلامه جوهر من أن صلاح الدين يعد له العدة لإلقاء القبض عليه وعلى كل أهل الخليفة في حال وفاته. وحينما يشعر العاضد بدنو أجله، يطلب رؤية صلاح الدين، ويوصيه بأهله وأهل بيته خيرًا، فيعده صلاح الدين برعايتهم، ويعده برعاية أخته سيدة الملك مثل أخته، فتفرح سيدة الملك؛ لعدول صلاح الدين عن فكرة الزواج بها. ثم يموت العاضد، ويُنصّب صلاح الدين نفسه سلطانًا على مصر، ويقوم بنقل أهل العاضد وأخته إلى قصر جديد، هو دار برجوان، وتظل سيدة الملك متعلقة القلب بالشاب عماد الدين، وتنتظر عودته.

ثم تصل الأحداث إلى ذروتها، حينما تصل رسالة إلى صلاح الدين من عماد الدين بعد طول غياب بحوزة شاب، فيحملها بهاء الدين قراقوش أحد الأصدقاء المقربين من السلطان صلاح الدين ويذهب بصحبة السلطان إلى غرفة سيدة الملك، ويقرأ الرسالة في حضورها، والتي يخبره فيها عماد الدين بأنه أسير في سجن بيت المقدس، وأنه علم بوجود مؤامرة تُحاك للسلطان بزعامة أبي الحسن، وبعض الشيعة العلويين في منزل بمدينة الفسطاط. وفي هذا اللقاء يعلم السلطان بحب سيدة الملك للشاب عماد الدين حينما أُغشي عليها عندما سمعت من السلطان بأن من أرسل له هذه الرسالة هو الشاب عماد الدين. فيبارك السلطان صلاح الدين هذا الحُب. تدل ياقوتة حاضنة الأميرة بهاء الدين على طريق الغلام جوهر غلام أبي الحسن، الذي يدل بهاء الدين على مخبأِ أبي الحسن وجماعة الشيعة في الفسطاط، فيُلقي قراقوش القبض عليهم ومن ضمنهم الشاعر عمارة اليمني، غير أن أبا الحسن قد استطاع الفرار من مخبأِ سريٍّ، وتم صلبهم جميعًا. وينجو السلطان من تلك المؤامرة. ثم تطلب سيدة الملك من حاضنتها استدعاء الشاب الذي جاء برسالة عماد الدين؛ لتسأله عن أخباره، فيأتي شاب إلى الأميرة يُدعى جرجس، ويخبرها بأحوال عماد الدين، وأنه قد أخبره أنه يعز ويجل سيدة الملك بشدة، وأنه سيخرج من سجن بيت المقدس قريبًا، وأن اسمه قد أصبح عبد الجبار. ثم طلبت سيدة الملك منه أن يحمل رسالة منها إلى عمادالدين.

تتوالى الأحداث، ويعود بنا الكاتب للحديث عن أبي الحسن الذي يظل يدبر المكائد للخلاص من صلاح الدين، فبعد فراره من القصر، ذهب إلى دمشق، وقابل السلطان نور الدين، وحاول أن يوقع بينه وبين وزيره صلاح الدين. غير أن نور الدين كان يتسم بالذكاء، وفطن إلى أن أبا الحسن يريد أن يتخلص من صلاح الدين عن طريق تلك الوشاية، فغضب وعنف أبا الحسن بالحديث. وكان السلطان نور الدين مريضًا، فانصرف أبو الحسن. وفي الصباح، علم بوفاة نور الدين، فخشي أن يرجع الناس إليه السبب في موت السلطان، فلم يجد أمامه سوى الفرار مرة أخرى؛ للاستعانه براشد الدين سنان؛ للنيل من سيدة الملك التي كانت سبب شقائه. فلولا رفضها الزواج منه، لما تعرض لكل تلك الصعاب.

هنا تبدأ العقدة في التكشف، حينما يبدأ عماد الدين استئناف رحلته للذهاب إلى قلعة مصياف؛ للقضاء على راشد الدين سنان، وذلك بعد خروجه من بيت المقدس، بعد أن توسط جرجس لدى الحاكم المسيحي للإفراج عن عماد الدين. وكان عماد الدين قد التقى جرجس في سجن بيت المقدس، فتقرب كلٌّ منهما إلى الآخر،وتوطدت علاقة الصداقة بينهما، فكشف له جرجس عن حقيقته، وأن اسمه الحقيقي هو عبد الرحيم، وأنه من كبار الفدائيين الإسماعيليين، وقد تنكر في زي مسيحي للقضاء على أموري الإفرنجي حاكم بيت المقدس، وأثناء سجنه تعرف إلى صغار أهل البلاط، فقربوه منهم؛ نظرًا لأنه مسيحي، ويعرف لغة أهل البلاد، فأرسلوه في مهمة إلى القاهرة، وعند عودته توسط لإخراج صديقه عماد الدين من السجن، وكان عبدالرحيم قد لمس الشجاعة في عماد الدين، وعمل على استمالته للانضمام إلى سلك الإسماعيلية، فكشف له عن حقيقته، وقص عليه ما يعرفه عن كرامات شيخ الجبل، ودفع إليه رسالة سيدة الملك له، فعلم بعدول سلطانه صلاح الدين عن فكرة الزواج منها، فاشتعلت نيران الحُب داخله، وأصبحت صورتها لا تفارق خياله، وأصبح شديد الرغبة في العودة إلى بلاده؛ للقاء محبوبته، ولكن كان عليه فى البداية إتمام مهمته التي خرج من القاهرة من أجلها.

يخرج عماد الدين من السجن، وينطلق تجاه قلعة مصياف حاملاً معه رسالة توصية من صديقه عبد الرحيم إلى الشيخ دبوس نائب شيخ الجبال، وحينما وصل إلى القلعة سمع من الشيخ دبوس عن كرامات شيخ الجبل، التي سربت القلق والتوتر إلى نفسه، ثم لحق به صديقه عبد الرحيم، والتقى عماد الدين بصحبة صديقه عبد الرحيم بشيخ الجبال، ورأى بعينه من كرامات ذلك الشيخ ما أذهل عقله وكاد يوشك أن يؤمن بذلك الشيخ ونعيم الجنة التي يعيش فيها كل من يعمل معه غير أنه تذكر وعده للسلطان بالقضاء على ذلك الشيخ.

ثم تزداد العقدة في الاقتراب من الحل والتكشف، وذلك حينما أخبر عبد الرحيم عماد الدين بأن شيخ الجبل شديد الحرص على حياة السلطان صلاح الدين؛ وذلك لأنه قد علم عن طريق الوحي بأنه سيموت في نفس العام الذي يموت فيه صلاح الدين. لذلك فهو أحرص الناس على حياته. فيسعد عماد الدين بما سمعه، ويعلم أن تنفيذ المهمة التي كانت تحول بينه وبين سيدة الملك أصبحت لا ضرورة لها، وطلب من عبد الرحيم مساعدته على مغادرة القلعة والعودة إلى القاهرة. فوافق عبد الرحيم على طلب عمادالدين، ولكن عليه قبل الخروج إتمام مهمة يعهد إليه بها شيخ الجبل. كانت مهمه شيخ الجبل هي أن طلب منه أن يقوم بقتل أحد الأمراء في حصن القلعة، وكان هذا الأمير من الأصدقاء المقربين للشيخ في الصغر ويُدعى سليمان. حذر عبد الرحيم عماد الدين من مغادرة الحصن دون تنفيذ مهمته، وأنه سوف يسعد بعد إتمام هذه المهمة، وتعجب عماد الدين مما قاله له عبد الرحيم. وأخبرعبد الرحيم عماد الدين أنه سوف يقابله في الطريق بعد إتمام مهمته للخروج معه من تلك القلعة، بعد أن تكشف له كذب وادعاء ذلك الشيخ فيما يبدو منه من كرامات.

وتوشك أحداث الرواية على النهاية بعد أن يقوم عماد الدين بتنفيذ مهمته، وقتل الشيخ سليمان الذي يطلب منه طلبًا غريبًا وهو في النزع الأخير؛ حيث طلب منه الذهاب إلى منزله وقتل المرأة الموجودة داخله، فيدفع الفضول عماد الدين إلى الذهاب لرؤية المرأة التي يكرهها الرجل لهذه الدرجة، حتى إنه يطلب من قاتله الذهاب لقتلها، وحينما يذهب إلى المنزل يتكشف له أنها سيدة الملك، وأن الشيخ سليمان هو أبو الحسن ألد أعداء صلاح الدين، فينقذها ويعودا سويًّا إلى مصر بصحبة عبد الرحيم. ويسعد صلاح الدين

بعودة عماد الدين وسيدة الملك، وتنتهي أحداث الرواية نهاية سعيدة، وتحل عقدة الرواية في نهايتها؛ حيث يقوم صلاح الدين بعقد احتفال لتزويج عمادالدين من سيدة الملك.وهو ما يتضح من خلال المثال التالي:

"فهُرِع بهاء الدين إلى قصر النساء يُبِّشر سيدة الملك بزيارة السلطان. فاستعدت لاستقباله، فلما أقبل عليها، حيّاها، وقال: "قد أصبتِ؛ لأنك فضلت عماد الدين عليّ، فإنه أنقذك من الموت مرتين، وخلصنا من أشر الأعداء، فهو جدير بك، وسوف نعقد له عليك". فخجلت خجلاً يمازجه الفرح والإعجاب، وأطرقت حياءً، ثم رفعت بصرها إليه، وقالت: "لم أفضل عماد الدين إلا لمناقب تعجب السلطان صلاح الدين. فأعجبه جوابها، فقال: "كنتِ في رعايتي، ولكنك الآن في رعاية البطل عماد الدين، ويحق لك أن تفتخري به كما يحق له الافتخار بكِ". قال ذلك، وخرج، وغادر سيدة الملك، وقلبها يرقص فرحًا، وقد نسيت كل مصائبها الماضية. واحتفلت مصر بزفاف سيدة الملك إلى عماد الدين احتفالها بزواج الملوك (٣٣)".

تدخل الكاتب في سير الأحداث:

بعد الاطلاع على روايتي صلاح الدين الأيوبي، وجدنا أن كلا الكاتبين، قاضي عبد الستار وجرجي زيدان، كانا يتدخلان كثيرًا في الأحداث، مما يعيق سيرها. حيث كان كل منهما يعمد إلى استخدام تقنية الوقفة؛ لوصف مشهد أو مكان أو شخص، وكان قاضي عبد الستار من عاشقي هذه التقنية؛ حيث كان يهتم باستخدام أدق التفاصيل في الوصف، وهي من سمات الكتاب الواقعيين الهامة، أو استخدام الاستطراد في السرد والحوار، مما يبعد القارئ ويفصله عن أحداث الرواية. وهي التقنية التي أسهب جرجي زيدان في استخدامها؛ حيث كان دائمًا ما يتدخل في سرد الأحداث عن طريق الراوي، بالإضافة إلى استخدامه تقنية الوصف والإسهاب في استخدامها أحيانًا.

وللتأكيد على ماسبق، نذكر المثالين التاليين:

<u>المثال الأول</u>

"ظل رئيس الوزراء يفكر لبرهة من الوقت، ثم صفق بيديه، وأمر الخادم:

ـــــ ليحضر أمير العساكر! ضابط الشرطة! وصاحب العدل!

قرأ ضابط البريد شيئًا ما في تعبيرات وجه رئيس الوزراء الغاضبة، والتمس قائلاً:

ـــــ كره أمير المؤمنين أسلوب عودة جلالتك من قصر الخلافة، وأمر بالتحدث مع سراحريم منفردًا، وأدى صلاة العصر مع أفراد الأسرة الذين يقع عليهم عتاب كبير، وكان من الممكن أن تصبح هذه الأمور الصغيرة جدًّا تمهيدًا لأي طوفان سياسي. يوجد في ضواحي القاهرة الآلاف من أصحاب السيوف السودانيين الذين خدموا الخلافة لقرون، والذين قمت بعزلهم.

أخذ رئيس الوزراء يفكر بعمق.

فرشت بعض السجاجيد على مصطبة من حجر المرمر. ووُضعت كراسٍ من الأبانوس ذات نقوش فضية تتلألأ في ضوء شمعدانات بطول قامة الإنسان. كان القمر يضيء في السماء. أسفل الجوانب الأربعة للمصطبة يوجد نهر مليء بالأحجار السوداء، تتصاعد المياه منه، تعلوه قنطرة صغير لعبور الناس، زُينت آخر درجة من درجها بالحشائش الخضراء. وعند أشجار التين الكثيفة كان يقف جمع من التركمان المسلحين، في مقدمتهم صاحب العدل القاضي عماد الدين الذي قد ضاعفت لحيته السوداء من وجاهته الظاهرة على عمامته البيضاء وعباءته البيضاء. وكان خلفه أمير الجيوش الملك العادل الذي قد

التصقت بخوذته ريشة خضراء لامعة يجر غمد سيفه المنقوش بنقوش ذهبية. وخلفه أمير الشرطة طغرل يسير طروبًا معتزًا بشبابه مرتديًا درعه...."(٣٤).

تدخل قاضي عبد الستار في المثال السابق في تعطيل سير الحدث. فالحدث الأساسي كان استدعاء رئيس الوزراء يوسف نجم الدين لكلٍّ من أمير العساكر وضابط الشرطة والقاضي عماد الدين. وبينما ينتظر القارئ قدوم هؤلاء الأفراد، يتدخل الكاتب في تعطيل السرد من خلال سرد واقعة صلاة الخليفة العاضد مع سراحريم، وما كان يمكن أن ينتج عنه من فتنة، وذلك على لسان ضابط البريد، ثم يتدخل الكاتب للمرة الثانية ليجعل القارئ يستمر في الانتظار، وذلك من خلال تقديم وصف للمكان الذي يستعد لاستقبال هؤلاء الأفراد.

المثال الثاني

"أما سيدة الملك، فإنها ذهبت إلى غرفتها، فلقيتها هناك حاضنتها الخاصة، وأخذت في مساعدتها على نزع ثيابها استعدادًا للنوم، ولم تفاتحها في شيء من الحديث الذي تم مع أخيها، رغم شدة رغبتها في ذلك. والخدم من أكثر الناس ميلاً إلى استطلاع الأسرار؛ لفراغ رؤوسهم من المشاغل المهمة، مع اطلاعهم على مُخبأت تجري في منازل أسيادهم ووقوفهم أمامها وقوف المتفرج، ينتقدون هذا ويمدحون عمل ذاك على ما تسوقهم أغراضهم أو مداركهم، فيلذ لهم التحدث فيما بينهم، كل واحد عما يعلمه من أحوال مخدومه، ويندر فيهم من يحافظ على سر مولاه، ويغار على سمعته، ويسعى في درء الشبهات عنه. وكانت حاضنة سيدة الملك من هذا النوع النادر، واسمها ياقوتة"(٣٥).

قام جرجي زيدان في المثال السابق بالتدخل وأوقف سير الأحداث؛ ليحدثنا عن طبيعة الخدم، وينقل لنا وجهة نظره في الخدم، وما يتسم به معظمهم من صفات عامة، وهو أمر لا يهم القارئ في شيء داخل رواية تاريخية إسلامية، فلا ينبغي على الكاتب أن يسرف في كتاباته في الاستطراد الذي يبعد القارئ عن أحداث روايته. وكان جرجي زيدان من هذا النوع من الكتاب؛ فأمثلة الاستطراد كثيرة داخل الرواية موضوع الدراسة.

الاعتماد على المصادفات:

لا ينبغي على الكاتب الاعتماد على المصادفات وافتعال الأحداث؛ فهو بذلك يستخف بعقلية القارئ، ويصيب البناء الفني للرواية بالضعف. فالإكثار من استخدام الكاتب لهذه التقنية يجني على العمل الروائي، ويُلقي به بعيدا عن دائرة الفن، ويُصيبه بالتفكك، وعدم القدرة على إقناع القارئ.

بالنسبة فيما يخص رواية صلاح الدين الأيوبي للكاتب قاضي عبد الستار؛ نجد أنه كان حريصًا على البناء الفني لروايته، فلم يعتمد على المصادفات، إلا فيما يخدم السياق الدرامي لروايته؛ حيث اعتمد في بداية روايته على المصادفة التي كانت بعد ذلك محورًا لكثير من أحداث روايته. وأقصد هنا تلك المصادفة التي جمعت بين يوسف صلاح الدين وبين الملكة إليانور، وقد ساقها الكاتب بشكل درامي جيد، وكانت تلك المصادفة حين طلب يوسف من صديقه المسيحي قحطان أن يساعده على التنكر في زي راهب مسيحي، ويأخذه إلى معسكر الفرنجة، وحينما وصلا إلى شواطئ نهر زر أفشان، حيث يعسكر جنود الذات الملكية الفرنسية، وقع في يد امرأة مسلحة من النساء الحارسات للملكة إليانور، فأخذتهما إلى مقر الملكة الخاص، وحينما تسأل يوسف عن هويته، فيخبرها أن اسمه جون، وأنه قادم من دمشق، ويعمل في خدمة الرب، فتعرض عليه الملكة أن تضمه إلى كتيبة حرسها الخاص، فيعمل يوسف على خدمتها. وللتوضيح نذكر المثال التالي، وهو حوار بين الملكة إليانور ويوسف المتنكر في زي راهب، والذي يكون بداية أحداث

متلاحقة نتيجة المصادفة التي دفعته لقبول طلب الملكة بالموافقة والعمل ضمن كتيبة حرسها الخاص:

-هل تعرف الفرنسية؟!

-لا! إن والدتي شامية.

-هل تعرف عقوبة الغرباء الذين يحملون السلاح داخل معقل فرنسا؟!

-الموت.... لكنني لست غريبًا، ولم آت من نفسي!

- كيف ذلك؟!

كان جدي خادمًا مطيعًا لتاج فرنسا وعرشها. ودماؤه تجري في عروقي. وأحضروني إلى هنا بحد السيف. والأساقفة لا يغيرون على المسيحيين، ولكنني شعرت بضرورة الحاجة إلى الخنجر والدرع حرصًا منهم.

نظرت الملكة إليه، وتبسمت، فاطمأن .....

ـــــ في تصورنا أنه مقابل الرهبنة في هذه السن الصغيرة، فيمكنك أن تعيش في خدمة الملوك، وتؤدي أعمالاً جليلة، وتحصل على رضاء أكثر من المسيح.

ـــــ أنا ... لم أفهم قصد ملكة العالم!

-يمكننا أن نضمك إلى كتيبة الجند المحافظين الخاصة بحراستنا الشخصية.

وقال مجبورًا: سأظل أفتخر طوال العمر بهذا الشرف [٣٦].

وتكون هذه المصادفة التي جعلت يوسف يعمل ضمن خواص الملكة هي التي كانت أساسًا بنى عليه الكاتب كثيرًا من أحداث روايته. فلولا هذه المصادفة التي دفعت يوسف للعمل ضمن خواص الملكة، لما اجتمع بالملكة إليانور، ولا نشأت بينهما تلك العلاقة الغرامية التي تولدت بينهما أيضًا عن طريق المصادفة، وذلك كما ذكرنا حين خرجت الملكة مع خواصها من الفرنسيين للصيد في جبال لبنان، ودخلت في الغابة المعتمة، فتخلفت عن جنودها، فرآها يوسف، وسارع إليها وظلا بمفردهما، ويخرج عليهما الأسد من عرينه، فيُظهر يوسف في شكل الفارس الشجاع، ويظهر قوة وبسالة في مواجهة الأسد، ويقضي عليه، وينقذ الملكة إليانور. ومن هنا تنشأ بينهما العلاقة الغرامية التي ظلت ذكرياتها تطارد السلطان صلاح الدين، حتى الصفحات الأخيرة من الرواية.

ولتوضيح ما سبق، نذكر المثال التالي:

"..... كان ملك الغابة قد خرج من عرينه وزاد زئيره الكون رعبًا. انحدرت على صدره الشمس المذعورة. والتصق عرف خوذة الملكة بذقنه .ثم رأى بنظراته الباحثة أن الأسد يقترب منهما في هيئة الملوك على مسافة قريبة منهما دون أن يُلقي له بالاً، ويريد أن يغرب وسط الأحراش العالية الموجودة على يساره. ولو حدث ذلك في وقت آخر، لكانت هذه الفرصة غنيمة كبيرة لولي عهد دمشق المحبوب. لكن تحول ذلك الشاب إلى رجل في لحظات، وكان يستطيع أن يلتحم مع جيش كبير من أجل الحصول على ثقة تلك السيدة ذات المكانة الرفيعة المتعلقة بصدره. انفصل عن الملكة، وقذف الأسد بالرمح في قوة وسرعة. وفي نفس اللحظة سحب السيف، وهجم عليه. أخذ الرمح المغروس في جانب الأسد، وهجم عليه الأسد وهويزأر. كان بيده سيف غريب، لكنه كان في كل الأحوال سيفًا، وتمكن من قتله في فترة قصيرة، لكن الردن الأيمن لمعطفه لطخ بدمائه فكانت كأنها نقوش حمراء. مسح بكامل حواسه مثل الصيادين المحنكين سيفه الملوث بدماء الأسد في شَعر رقبة الأسد الميت. رأى في نفس اللحظة أن

الملكة كانت تضع يدها على عينيها، وكانت تنظر إليه من وراء أصابعها. ثم جاءت شبه مسرعة، ورأت دماءه، وصرخت ومالت على كتفه الأيمن....."(٣٧).

أما بالنسبة للمصادفات داخل رواية صلاح الدين الأيوبي لجرجي زيدان؛ فهي كثيرة جدًّا، وربما تكون روايته بأكملها قائمة على المصادفات، ومنها ما يوضح استخفافه بعقلية القارئ، واستيعابه للمواقف والأحداث.

ويقول الدكتور عبد الجواد المحص: "إن الصدف تمثل قاعدةً من قواعد الحياة في روايات جرجي زيدان، مع أن الصدف – كما نعرف – ليست قاعدة مطردة في واقع الحياة العادية (٣٨).

فاشتمال العمل الروائي على المصادفات يجني عليه كثيرًا، ويُلقي به بعيدًا عن دائرة الفن، ويصيبه بداء التفكك وعدم القدرة على إقناع القارئ، أو الحصول على تقديره، إنها باختصار تقتل الصدقين: الفني والتاريخي في العمل الروائي (٣٩).

اتفق جرجي زيدان مع الكاتب قاضي عبد الستار في أنه جعل اللقاء بين بطلي روايته عماد الدين وسيدة الملك ونشأة العلاقة الغرامية بينهما عن طريق المصادفة، وذلك من خلال تعرض قصر الخليفة الفاطمي (القصر الشرقي الكبير) لهجوم من العبيد. وتتعرض سيدة الملك لمحاولة اختطاف من قبل شخصين ملثمين، وبينا قد أوشكا على النيل منها، يظهر لها عماد الدين من العدم، وهنا يفتعل جرجي زيدان المصادفة، ويهب لنجدتها، فتتولد داخلها مشاعر الحُب تجاه هذا الفارس الشجاع الذي لا تعرف اسمه، حتى تخبر حاضنتها ياقوتة بما تكنه من مشاعر تجاه هذا الشاب، وتسألها عن اسمه، فتخبرها الحاضنة أنه يُدعى عماد الدين، وهو من خاصة صلاح الدين، ثم تتوالى الأحداث، وترسل سيدة الملك كما أوضحنا سابقًا رسالة إلى عماد الدين تدعوه فيها لرؤيتها في قصر النساء. وهناك توضح له سيدة الملك عن تعلق قلبها به منذ أنقذها ذلك اليوم. ولتوضيح تلك المصادفة التي جمعت بين كل من سيدة الملك وعماد الدين، نذكر المثال التالي:

"قالت سيدة الملك: ..... رأيت قارورة مشتعلة وقعت في الدار قرب حجرتي هذه، لا أدري من أين أتت؟ فذُعرتُ وصحت بالخدم أن يتلافوا خطرها. فلم يسمعني أحد؛ لاشتغال الرجال برمي النشاب بعيدًا عني.

"..... وبينما أنا في ذلك، وأهل القصر كل منهم في شاغل من نفسه، إذ رأيت رجلاً متنكرًا بثوب الخصيان قد غطى وجهه باللثام وثب من داخل الدار، لا أدري كيف دخلها، فذعرت ولكنني ظننته أسرع إلى نجدتي، فما لبثت أن رأيته أمسك بيدي وجذبني نحوه كأنه يريد أن أتبعه، فتخلصت منه. فعاد وأمسكني ثانية، وجذبني إليه كأنه يريد أن يحملني إليه ويطير بي. ولم يكن في هذه الغرفة أحد يراني، فصحت واستغثت، فلم يُسمع صوتي؛ لأن الضوضاء قد ملأت هذا الفضاء، ثم جاء رجل آخر أعان الأول على اجتذابي، وهما يشيران إليَّ أن أتبعهما حالاً، وهددني أحدهم بخنجر استله من منطقته، فأثر في ذلك الموقف وخارت قواي. وكدت أُغلب على أمري، وقد ذهب نقابي، وانحل شَعري. وبينما أنا في ذلك، إذ رأيت شابًّا، وثب نحوي يظهر من ملابسه أنه من رجال صلاح الدين، فأيقنت أنه سيعين ذينك الرجلين عليّ، وإذا به قد صاح بهما صيحة الجبارين، وخنجره مسلول في يده وأوشك أن يقتلهما جميعًا، فلما رأياه خافا وتركاني وركنا إلى الفرار، وظل هو واقفاً كالأسد....."(٤٠).

أما من المصادفات الغريبة التي يستخف فيها جرجي زيدان بوعي وإدراك القارئ: تلك المصادفة العجيبة التي تجعل المستحيل ممكنًا، وتتضح في الحدث الذي يجتمع فيه القوم العلويون بزعامة أبي الحسن داخل أحد المنازل بالفسطاط؛ للتأمر على

السلطان صلاح الدين، فينقض عليهم بهاء الدين قراقوش وجنوده، فيُلقي القبض على الجميع، إلا أن أبا الحسن يستطيع النجاة من منفذ من داخل القاعة التي يجتمعون بها إلى منزل مجاور لهم، يملكه شخص يهودي يُدعى حاييم. وللتوضيح نذكر المثال التالي:

"..... ولم تمض دقائق قليلة، حتى صار رجال قراقوش داخل القاعة، وأخذوا في القبض على من فيها. وليس فيهم من يستطع دفاعًا؛ لأنهم لم يكونوا قد أعدوا من وسائل الدفاع غير ألسنتهم وأصواتهم.

ووجه قراقوش التفاته خصوصًا إلى أبي الحسن، فلم يجده بين المقبوض عليهم، فظنهم أخرجوه إلى خارج القاعة. ولما أيقن بنجاح رجاله في القبض على المتآمرين، أشار إلى جوهر بالنزول للرجوع إلى القاهرة. فنزل بين يديه بالمصباح وقراقوش يتعبه، ولم تطأ رجله السقيفة حتى سمع وقع أقدام مسرعة في أرض البيت تحت السقيفة، فأجفل، فتفرس قراقوش على النور الضعيف، فرأى شبحًا بالعمامة والجبة لم يعرفه، فقال له جوهر همسًا: هذا أبو الحسن هلم إليه.....

نزلا إلى أرض البيت وجوهر يقود قراقوش؛ لأنه يعرف مداخل المكان، وأصاخا فلم يسمعا خطوًا ولا صوتًا، كأن ذلك الشبح كان ظلاً وزال. فأراد قراقوش أن ينير المصباح ليرى المكان في النور، فأشار إلى جوهر أن يفعل، واستل خنجره وتهيأ للهجوم على من يظهر أمامه. ولم يكد جوهر يبدأ بالإشعال حتى سمعا صرير باب الدار، فركضا إليه فوجدا الباب مفتوحًا، وليس هناك أحد، فأضاءا المصباح وأخذا في البحث عن أبي الحسن في كل مكان فلم يجداه، فتأكدا أنه نجا"(٤١).

عرضنا في المثال السابق هروب أبي الحسن من قاعة الاجتماع، لكن الكاتب لم يوضح الطريقة التي استطاع الفرار بها، فإذا بحثنا في المثال عن طريقة للهرب لا نحظى بشيء، فكيف يتم إلقاء القبض على جميع المتآمرين إلا أبي الحسن؟ كيف يستطيع النجاة وحده دون غيره برغم اجتماعهم جميعًا في مجلس واحد؟ ولكي يُكمل جرجي زيدان سير الأحداث التي يستمر أبو الحسن بالظهور فيها من جديد، كان لزامًا عليه أن يوجد مصادفة يُبرّر بها للقارئ طريقة فرار أبي الحسن، حتى ولو كانت مصادفة غير مقبولة لا يمكن ولا يعقل حدوثها، ولكن مصادفات جرجي زيدان في روايته كثيرة، وتجعل المستحيل ممكنًا. وهو ماسنعرضه لاحقًا.

أما المثال التالي، فنوضح من خلاله المصادفة التي ألفها الكاتب؛ ليبرر بها هروب أبي الحسن، وحاول شرحها للقارئ بأسلوب غير مقنع.

"وأما أبو الحسن، فقد علمت أنه نجا تلك الليلة من القبض عليه؛ لأنه كان لفرط دهائه وحذره يحتاط لكل شيء. وكان قد أعد منفذًا من قاعة الاجتماع إلى بيت ذلك اليهودي، حتى إذا داهمهم أحد، فر من هناك لا يبالي بما يصيب رفاقه، وإنما هو يطلب النجاة لنفسه"(٤٢).

وللتأكيد على اعتماد جرجي زيدان على المصادفات كوسيلة لبناء أحداث روايته، لابد من ذكر تلك المصادفة العجيبة التي جمعت بين عماد الدين وجرجس في سجن بيت المقدس. حيث كان عماد الدين في طريقه إلى قلعة مصياف للقضاء على شيخ الجبل زعيمها، فيتم اعتقاله وإيداعه داخل سجن بيت المقدس. فتشاء الصدفة أن يقابل داخل السجن جرجس، فتجمعهما صداقة، ويكشف له جرجس عن هويته الحقيقية، وأنه مسلم ويُدعى عبد الرحيم، ويعمل ضمن طائفة الإسماعيلية، ويسعى جاهدًا لضم عماد الدين إلى هذه الطائفة، لما رآه فيه من قوة وشجاعة. ولتوضيح تلك المصادفة نذكر المثال التالي:

"ففي أثناء إقامة عبد الرحيم (أو جرجس) هذا في السجن تعرف إلى عماد الدين، وأحبه وتمكنت العلاقات بينهما، فكاشفه عبد الرحيم بحقيقته، وكيف أنه مسلم، وأنه احتال بالسجن ليتوصل إلى غرضه، ويقتل صاحب بيت المقدس بإشارة مولاه راشد الدين، وأخذ يرغبه في هذه الطائفة ونبالة مقاصدها وشدة تأثيرها، فحمد عماد الدين السبب الذي جرّه إلى ذلك السجن؛ لأنه كان وسيلة إلى هذا التعارف وسهل عليه مهمته. فأظهر ارتياحه لذلك الرأي، ووعده بأن ينتظم في سلك الإسماعيلية بعد خروجه من السجن، وهو يضمر أن يجعل ذلك الانتظام وسيلة لتنفيذ مهمته التي جاء من أجلها لقتل راشد الدين. وبذل جهده في إطاعة عبد الرحيم، وأطاعه في تغيير اسمه فجعله عبد الجبار"(٤٣).

وهكذا رأينا كيف لعبت المصادفة العجيبة دورًا أساسيًّا في أحد الأحداث الرئيسة بالرواية، والتي بُنيت عليها أحداث جديدة متلاحقة سوف تظهر تباعًا.

لم يُبق الكاتب على حياة أبي الحسن، إلا لكي نراه في مصادفة أخرى أعجب وأغرب؛ حين يتبين لنا فيما بعد أنه صديق لراشد الدين سنان زعيم الحشاشين ويُدعى سليمان، وذلك حين يطلب راشد الدين من عماد الدين (عبد الجبار) أن يقوم بقتل صديقه الشيخ سليمان، فيقوم عماد الدين بقتله، وهو لا يعرف هويته، ويقوم بتنفيذ ذلك الأمر، حتى تسنح له الفرصة للخروج من القلعة، ولكن سليمان يطلب منه طلبًا غريبًا، يطلب منه الذهاب إلى منزله وقتل المرأة التي يجدها هناك.ونوضح ذلك من خلال المثال التالي:

"قال عماد الدين: إني أسير بين يديك إلى باب المنزل.

قال الشيخ سليمان: لا حاجة إلى تعبك. هذا هو المنزل.

وأشار بأصبعه إلى نور ضعيف لا يظهر سواه في ذلك السهل.

فقال عماد الدين: بل أسير معك حسب أمر مولاي.

فوقف الشيخ، ومد يده ليتناول المصباح منه، فامتنع عماد الدين على أن يناوله إياه، فغضب الشيخ، وقال في عنف: هات المصباح ياغلام، وانصرف لسبيلك.

فقال عماد الدين: هل هذا جزاء من يريد القيام بخدمتك؟

قال ذلك، واستل خنجره، وأغمده في قلبه. فوضع الشيخ كفه على موضع الضربة، وصاح: آه! قتلتني يالعين! ويلاه! آه! ماذا فعلت معك؟

فهم عماد الدين أن يثني الضربة، فأمسكه بيده الأخرى وهي ترتعد، وقال: هذه الطعنة تكفي لقتلي. فأغمد الثانية بصدر تلك الخائنة. انظر! إني مسامحك على قتلي؛ لأني أستحق القتل. ولكن هناك امرأة... هناك... في هذا المنزل حيث ترى... النور... امرأة... أحق بالقتل مني... بالله ألا ذهبت إليها وقتلتها. وخذ ما في جيبي من النقود والمجوهرات مكافأةً لك"(٤٤).

هذا وقد كانت الصدفة في المثال السابق تمهيدًا للصدفة الكبرى في رواية الكاتب جرجي زيدان، حيث يذهب عماد الدين بدافع الفضول لرؤية تلك المرأة التي يكرهها الشيخ سليمان لهذه الدرجة، حتى أنه قد سامح قاتله على فعلته نظير أن يقوم بقتلها. وحين يذهب عماد الدين لرؤيتها يسمع آهات امرأة مظلومة حبيسة في ذلك المنزل، ويكتشف أنها محبوبته سيدة الملك. ونوضح تلك الصدفة من خلال المثال التالي:

"..... وأصبح عماد الدين يرتعد من عظم التأثر؛ لأن الصوت صوت سيدة الملك. ولو كان يعلم بما بينها وبينه لم يشك أنها هي. لكنه استبعد وصولها إلى هناك وهي في رعاية صلاح الدين. وإنما ارتعد انتصارًا لامرأة مظلومة إكرامًا لحبيبته؛ لأنها من جنسها، وزادت نقمته؛ لأن صوتها يشبه صوت سيدة الملك. ثم سمع الرجل يخاطبها قائلاً:

والآن ياسيدتي ماذا تريدين أن نفعل؟ لابد لنا من أخذك إليه حسب أمره، وهذا رسوله واقف بالباب. وهل في الإمكان رد طلبه؟ فالأوفق أن تنهضي راضية.

فلما سمعت تهديده، صاحت صيحة وقف لها شَعر عماد الدين قائلة: أتهددوني بالأخذ قهرًا؟ هل يريد هذا الشقي أن يحملني على أيدي اللصوص كما فعل قبل الآن؟ ثم خفضت صوتها وغصّت بدموعها، وقالت: ولكن الله بعث إلي في تلك المرة ملاكًا شجاعًا أنقذني من مخالب الموت وأنقذ شرفي وحياتي.

ثم تنهدت، وقالت: آه! أين أنت ياعماد الدين؟

فلما سمع عماد الدين نداءها، لم يتمالك عن الوثوب كالأسد الكاسر. وقد تحقق أن تلك المظلومة حبيبته سيدة الملك، وأجابها: لبيك! لبيك... ياسيدتي..."(٤٥).

وهكذا من خلال الأمثلة السابقة، نرى كيف اعتمد جرجي زيدان على المصادفات اعتمادًا أساسيًّا لبناء أحداث روايته وجعلها وسيلة لحل عقدة الرواية، فالصدفة هي التي جمعت بين الحبيبن في بداية الرواية، وهي التي حلت العقدة، وجمعت بينهما في النهاية، حين التقيا سويًّا، وعادا معًا إلى القاهرة، وتنتهي أحداث الرواية بزواج عماد الدين من حبيبته سيدة الملك.

ومن خلال ما سبق، أوضحنا ما يؤكد عليه أكثر النقاد حول اعتماد جرجي زيدان على أفعال المصادفات في بناء روايته، وهذا ما يؤكد عليه أحد النقاد قائلاً: "وكثيرًا ما نراه، وبخاصة في قصصة الأولى، يلجأ إلى الصدفة؛ لتعينه على ربط الموقف أو حل العقدة. وهذا الاعتماد يفقد جانب الإبداع في القصة، ويدل على ضعف الحاسة الفنية عند الكاتب، كما يبعد القصة عن الواقع المعقول، فتتهافت وتبرد حرارتها وتبرز الصنعة المهلهلة فيها"(٤٦).

وإن كان هذا هو رأي النقاد في روايات جرجي زيدان الأولى، فإني أتفق معه في الرأي، ولكن أضيف أنه استمر على هذا المنوال حتى آخر رواياته؛ فرواية صلاح الدين الأيوبي موضع الدراسة المقارنة كتبها جرجي زيدان عام ١٩١٣ م، وتوفي في العام التالي من كتابتها ١٩١٤م. أي أنه استمر على نفس النهج حتى آخر كتاباته.

الاعتماد على عنصر الإثارة والتشويق والأسرار:

لا ينبغي على كاتب الرواية التاريخية الاعتماد على عنصر الإثارة والتشويق، إلا فيما يخدم السياق الدرامي والبناء الفني للرواية، وأن يكون حذرًا في استخدام هذه التقنية؛ فلا يفرط في استخدامها. فعليه دائمًا مراعاة أنه يقوم بكتابة رواية تاريخية، أي أنه يذكر وقائع تاريخية مسجلة، فلا مجال للتحريف فيها، أو نسج أحداث خيالية حولها مما يفقد الرواية مصداقيتها التاريخية ويحولها إلى مجرد رواية عادية. فكاتب الرواية التاريخية عليه أن يحتاط لما يذكره من أحداث خيالية؛ حتى لا يقع في دائرة تحريف التاريخ، فلا ينبغي عليه أن يضيف أحداثًا خيالية إلى حدث تاريخي؛ حتى لا يفقد الحدث مصداقيته التاريخية .

بعد الاطلاع على الروايتين موضع الدراسة، نجد أن الكاتب قاضي عبد الستار قد حاول التقنين في استخدام عنصر التشويق والإثارة، فلم يستخدمه إلا فيما يخص ما نسجه من أحداث خيالية داخل روايته، منها ما يتعلق بالأحداث الأولى على صفحات الرواية، والتي تناولت فترة شباب صلاح الدين وتنكره في زي راهب مسيحي وجميع ما مر به من أحداث أثناء فترة تنكره تلك.

هذا، وقد لجأ قاضي عبد الستار أيضًا إلى عنصر الغموض والتشويق، وكان ذلك فيما يتعلق بالأجزاء الخيالية من الرواية، ومنها حين جاء أسقف من الغرب طالبًا المثول بين يدي السلطان، ويبدو على الأسقف أنه كان يعيش في المكان من قبل، ولكن الكاتب لا يفصح عن شخصية هذا الأسقف إلا في الربع الأخير من الرواية. وللتوضيح؛ نذكر الأمثلة التالية:

المثال الأول

ونوضح فيه أسلوب الغموض الذي تعامل به الكاتب في عرض هذا الحدث المتعلق بشخصية الأسقف القادم من الغرب على النحو التالي:

"الآن كان مواجهًا لمسجد بني أمية الشامخ، ثم راح يتجول في ذلك السوق خلف المسجد، وهو يرمق بعينيه عظمة وجلال ذلك المسجد التاريخي العريق. واستوقف بغله أمام أحد الحمامات، وصاح صيحة أقبل على إثرها غلام الحمام مسرعًا، واختطف اللجام من يده بسرعة، ووقف هو أمام صاحب الحمام المتمدد على سجادة مبسوطة على مصطبة مزخرفة من الحجر الأحمر، إذ ربما يتذكره بعد مرور اثنين وأربعين عامًا، لكنه اتجه إلى الداخل بعد أن تيقن أن صاحب الحمام لن يتذكره، ولن يتعرف عليه، وبعد أن عاد قليلاً إلى رشده، أراد أن يضرب فضيل التعس هذا، وأن يحيى تلك الأحداث قبل اثنين وأربعين عامًا، والتي كانت مدفونة تحت آلالاف الأطنان من الذكريات. لكنه تراجع بعد أن فكر في بعثته السرية كسفير، ووضع يده اليمنى على صليب من الأبانوس معلق في رقبته، ويتدلى حتى سرته ونزل السلالم، وأخذ اللجام من الغلام الذي كان يجلس تحت ظلال شجرة التوت يشرب النرجيلة، وركب بغله.ومضى في سبيله..... وفجأة نزل فارس من فوق جواده، وجاء أمامه، فسمَّى ذلك الراهب باسم الصليب على صدره، وأبرز من عنقه تصريح الملك العادل له بالسفر، وسلمه إلى الفارس. استوقفه الفارس هناك، ثم منحه إذنًا للتقدم بإشارة من رأس قراقوش ضابط الرسائل..... ألقى الأسقف التحية منحنيًا إلى الأرض. أشار حاجب المقر الخاص بحاجبيه إلى الأسقف، فطفق ببطء شديد يصعد الدرج المغطى بأجود أنواع الحرير، وفي نهاية الدرج أمسك غلمان مسلحون بيده، وتقدموا بخُطى متأنية، وأزاحوا الستائر، وأدخلوه إلى القبة..... كان السلطان غارقًا في تفكير ما. رفع بصره إثر سماعه وقع أقدام. ركع الأسقف على ركبتيهبمجرد أن أشار السلطان، فأوقفه الخدم مثل اللعبة، وأجلسوه على السجادة البيضاء المبسوطة تحت العرش..... أنزل الأسقف الصليب عن صدره بيد مرتعشة، وأمسك بالجزء العلوي منه وضغط عليه بقوة. انفتح الصليب، وأخرج منه لفافة مُشمعة ووضعها على عينيه، ثم وضعها على يديه، ونهض على ركبتيه..... التمس الأسقف متلعثمًا:

"أمرتُ أن أضع هذه في يد السلطان المباركة".

..... نظر إلى الحاجب الذي كان ينتظر الأمر، وحرك رقبته- اصطحب الحاجب الأسقف، وذهب خارج حجرة الراحة الخاصة ....."(٤٧).

هذا ولا يفصح الكاتب عن هوية هذا الراهب الذي جاء طالبًا رؤية السلطان صلاح الدين، حاملاً إليه تلك الرسالة التي تبدأ منها الأحداث الرئيسة للرواية، إلا في الربع الأخير من الرواية؛ حيث يعود بنا الكاتب من دائرة الذكريات التي وضعنا فيها بمجيء تلك الرسالة، ويعود بنا إلى الحاضر مرة أخرى؛إذ يطلب السلطان صلاح الدين رؤية ذلك الأسقف، فيتضح أنه صديق شبابه المسيحي قحطان، والذي أتاحت له الصدفة العمل في بلاط الملكة إليانور بعد مساعدة الملك ليوسف (صلاح الدين) في العودة إلى بلاده بعدما تكشفت حقيقته وعلمت أنه مسلم، فغادر يوسف دون أن يخبرنا ما حل بصديقه قحطان. ويغيب قحطان

عن أحداث الرواية، ويعيده الكاتب من جديد على مسرح الأحداث، فيكشف لنا عن سر ذلك الأسقف، ونكتشف تلك الصدفة الغريبة، وأن هذا الأسقف هو قحطان، وأن الملكة قد أبقت عليه للعمل في بلاطها، حتى أصبح يعمل سفيرًا، وهو ما يبرر مجيء قحطان؛ لرؤية السلطان صلاح الدين، وهو ما يتوافق مع عمله كسفير للملكة.

ولتوضيح ما سبق، نذكر المثال التالي:

"لتستدع الأسقف القادم من الغرب.....

ـــــ بالأمس لم تكن صحتنا في حالة جيدة، ولم أستطع أن أعرفك جيدًا.

ـــــ لقد كسا الشيب شَعرك أكثر منا.

ـــــ ازداد وزنك، وبدأت تأخذ شكل الأسقف الحق.

وتعالت قهقهات أذابت عن قحطان الرعب من حضرة السلطان، ودفعته إلى الحديث معه.

ـــــ إن انتخابك من أجل أن تقوم بواجبات السفير الخطيرة، يعني أن إيلينورتعتمد عليك بالكامل"(٤٨).

أما الكاتب جرجي زيدان؛ فقد اعتمد اعتمادًا كاملاً على عنصر الإثارة والتشويق وغض البصر عن كونه يتناول رواية تاريخية، لابد له من تناول أحداثها بمصداقية، وألا يحيد عن تلك الأحداث التاريخية بما ينسجه حولها من أحداث خيالية، إلا أنه قد تناسى موضوع روايته التاريخية، واكتفى بكتابة رواية مليئة بالتشويق حول ما جاء بها من أحداث تعلقت بالعلاقة الغرامية بين عماد الدين وسيدة المُلك، وما تعرض له صلاح الدين من مكائد ومؤامرات على أيدي شخصية الكاتب الخيالية أبي الحسن. وهكذا غاص الكاتب بعمله الروائي في بحر من الأحداث الخيالية التي أصابت عمله الفني بالركاكة، وأدت إلى تفكك بنائه الفني.

هذا، وتثبت رواية صلاح الدين لجرجي زيدان عكس ما يقوله جرجي زيدان في تناوله لكتابه التاريخ؛ فهو يقول: "وأما نحن؛ فالعمدة في رواياتنا على التاريخ، وإنما نأتي بحوادث الرواية تشويقًا للمطالعين، فتبقى الحوادث التاريخية على حالها وندمج فيها قصة غرامية، تشوق المطالع إلى استتمام قراءتها؛ فيصبح الاعتماد على ما يجيء في هذه الروايات من حوادث التاريخ، مثل الاعتماد على أي كتاب من كتب التاريخ من حيث الزمان والمكان والأشخاص"(٤٩). فهو هنا يدّعي أنه يُبقي على الحوادث التاريخية، ويُضفي عليها قصة غرامية مشوقة. أما القصة موضوع المقارنة فتنقض هذا الكلام؛ إذ لا نجد فيها أي مجال من الأحداث التاريخية، ولا يبرز بين أحداثها غير تلك الأحداث الخيالية المشوقة التي قامت عليها الرواية، والتي ليس لها أي أساس من الصحة، بل هي من نسج خيال المؤلف، مما أدى إلى ضياع الحدث التاريخي وسط زخم كل ما جاء من أحداث خيالية، فخرجت الرواية في شكل لا يمت للتاريخ وكتبه بأي صلة.

وكان جرجي زيدان يعمد إلى عنصر الإثارة والتشويق في معظم رواياته التاريخية، ويربط الناقد فؤاد دوارة في دراسته عن رواية (١٧ رمضان) لجرجي زيدان بين التشويق والإثارة والحبكة قائلاً: "أبرز ما يلفت نظر القارئ لروايات جرجي زيدان هو عنصر التشويق والإثارة الغالب عليها، وهذا العنصر يمثل مزية فنية لا يُستهان بها في الرواية، وفي كل أنواع القص منذ أقدم العصور. غير أن هذا الحرص الشديد على تشويق القارئ قد أوقع المؤلف فيالعديد من المبالغات والمواقف غير الطبيعية التي يأباها المنطق السليم"(٥٠).

أما الأسرار؛ فهي من دعائم الحبكة عند جرجي زيدان التي عمد إلى بناء الروايات عليها. ويكمن السر في رواية صلاح الدين الأيوبي في شخصية أبي الحسن، الذي كانت سيدة الملك تشك في نسبه للعلويين، حتى يكشف لنا جرجي زيدان في الصفحات الأخيرة من روايته عن هوية أبي الحسن الحقيقية، وأنه يُدعى سليمان، وأنه كان صديقًا مقربًا من راشد الدين سنان في الصغر، وأنه كان من أشد المجاهدين في نصرة راشد الدين سنان، ثم حالت الظروف دون بقائهما معًا، فافترقا قبل أن تصير زعامة الإسماعيلية إلى راشد الدين سنان. وهذا ما يوضح لنا سبب الشرور التي يتسم بها أبو الحسن، ومثابرته على افتعال المكائد والفتن طوال أحداثالرواية.

ويذكر الدكتور علاء الدين سعد جاويش أن جرجي زيدان كان يعتمد بشكل أساسي على الأسرار في حبكة روايته. (٥١).

الصراع الدرامي:

الصراع الدرامي عنصر وثيق الصلة بالفن القصصي عامة والشكل الروائي خاصة، والصراع يشكل عنصرًا رئيسًا في تلك الأعمال كلها، وفي الآداب المعاصرة يوظف الصراع توظيفًا فنيًّا وفكريًّا رائعًا، بحيث يبدو في الواقع، وكأنه منبع الإثارة والتشويق والإعجاب، فيُغري بالمتابعة ويأخذ بالقارئ أو المتلقي إلى التفكير العقلي والانفعال الوجداني (٥٢).

ويعد الصراع الدرامي لازمة أساسية من لوازم طبع الحبكة الروائية بطابع الحيوية والتشويق، ووسيلة لدفع الحدث نحو التطور والنمو وإحداث التفاعل بين الشخصيات. لذا لم يكن غريبًا ألا يختلف النقاد على ضروة اشتمال العمل الفني على ذلك العنصر؛ فهو، على حد تعبير، أحدهم العمود الفقري في البناء الدرامي، فبدونه لا قيمة للحدث أو لا وجود للحدث (٥٣).

وإذا قلنا إن الدراما هي روح الحكاية، فإنه ينبغي علينا القول بأن الصراع هو روح الدراما، ولا تخلو الرواية من عنصر الصراع؛ لأنها لابد أن تحتوي على عقدة أو مشكلة أو موقف معين أو ظروف خاصة. وهذا كله يدفع إلى نوع من الصراع أو الحركة أو التصرف الذي يؤدي في النهاية إلى النتيجة (٥٤).

هذا، وقد اشتمل جميع ما سبق في هذا البحث على الصراع الدرامي داخل الأحداث في كلا الروايتين، وما اعتمد عليه كلا الكاتبين من تقنيات في توضيح هذا الصراع من تدخل في سير الأحداث، والاعتماد على المصادفات، واستخدام عناصر التشوق والإثارة. أما ما يهمنا تناوله الآن، هو الصراع النفسي داخل أبطال كلا العملين الروائيين، وهو الصراع الذي يكون داخل الإنسان، بحيث يخوض معركة نفسية بينه وبين نفسه (٥٥). وقد تجلى هذا الصراع داخل بطلي القصة متمثلاً في الصراع بين العاطفة التي تتحكم من مشاعرهما، وبين ما يمليه عليه ضميرهما لأداء الواجب قبل تحكيم العاطفة، وهو ما نوضحه على النحو التالى:

الصراع بين العاطفة والواجب:

عاش صلاح الدين الأيوبي، بطل رواية صلاح الدين الأيوبي للكاتب قاضي عبد الستار، الصراع بين عاطفته تجاه الملكة إليانور، وبين ما يمليه عليه ضميره من واجبات تجاه الإسلام والمسلمين. فمنذ أن أرسلت إليه الملكة إليانور رسالة إليه مع صديقه قحطان تستنجده فيها لفك أسر ابنها الملك ريتشارد ملك إنجلترا الذي يقع أسيرًا لدى إمبراطور ألمانيا، بدأ السلطان صلاح الدين يدخل في هذا الصراع بين رغبته في نجدة محبوبته وتلبية رغبتها، وبين ما يمليه عليه ضميره من عدم الخروج بسيفه وجنده من أجل تلبية

رغبته الشخصية، التي لا علاقة لها برفعة راية الإسلام والمسلمين.

عاش صلاح الدين هذا الصراع بين العاطفة والواجب على مرحلتين: المرحلة الأولى- في مرحلة شبابه، حين تنكر في زي راهب مسيحي، ولقب نفسه بجون، وعمل ضمن الحرس الشخصي للملكة إليانور، وبعد أن اكتشفت الملكة هويته الحقيقية وأنه مسلم، لم تكشف عن حقيقته، ودفعها حبها له أن تعرض عليه بشكل غير مباشرالزواج منها، والجلوس على عرش ولايتها الخاصة ولاية الأينتكـــ، كما أبدت له استعدادها للتنازل عن تاج فرنسا، والتخلي عن زوجها لويس السابع، والذهاب معه إلى دمشق، مقابل السماح لها بممارسة طقوسها الدينية، وهو ما يعني أيضًا رغبتها في الزواج منه. وبالرغم من تلك الضغوط التي تعرض لها يوسف صلاح الدين من ناحية الملكة وعشقه لها، إلا أنه ظل صامتًا، ولم يجب أيًّا من طلباتها بالموافقة، وحين تهيأ للرد عليها، كان كلامه يوحي بأنه سيرفض بأسلوب مهذب، غير أن الملكة تركته، وخرجت. وهذا يوضح أنه قدَّم مصلحة بلاده ومصلحة المسلمين التي تنكر من أجلها في هذا الزي المسيحي، وخرج لاستطلاع قوة الصليبيين، على مصلحة مشاعره الخاصة. وهو أشبه بالموقف الذي تعرض له عماد الدين بطل رواية صلاح الدين الأيوبي لجرجي زيدان، حين استدعته سيدة الملك أخت الخليفة العاضد، وصرحت له بعشقها، إلا أنه لم يبادلها مشاعر الحب؛ إذ كان قد أقسم على الخروج في مهمة من أجل سيده صلاح الدين، وهي مهمة يمليها عليه واجبه تجاه سيده، وهو ما سنقوم بتوضيحه لاحقًا. أما فيما يلي، فنقدم مثالاً يوضح تغليب يوسف لعقله وواجبه تجاه وطنه على عاطفته الخاصة، وذلك من خلال حوار دار بينه وبين الملكة إليانوراقتطعنا منه ما يلى :

"-" إن أمنيتنا الوحيدة ألا نتمنى سواك.

-أليس من الأفضل أن يكون تاج الـــــ "اينـتـكـــ "على رأسك، وعرش الـــ " اينـتـك" تحت أقدامك.

-ولكن ياملكة العالم!

- إن الدين أمر خاص بك. تستطيع ضبطه وتقنينه حتى تختلي بنفسك.

- كيف يمكن ذلك؟

- مثل بعض الأمور الأخرى غير المحببة للسلطة والتي تستطيع تحمل إظهار بعض التقاليد الدينية الشكلية.

- لويس؟! إن لويس مثل التاج القديم! يمكن تغييره.

- لكنك صامت.

- لماذا لا تتكلم؟!

- تكلم! إن صمتك المخيف أذاب عظامنا.

- أنت صامت. إن الحب كلمة تنطقها حركة صغيرة للسان. لكن الثبات عليه أمر صعب، حتى على الملوك الكبار.

- يوسف، لو تستطيع تكوين مملكة في الشرق وتكفل لنا حرية الدين والعقيدة، فيمكننا خلع تاج الغرب رفيع المكانة وقبول العمامة القطنية لولي عهد الحاكم الأسيوي الصغير.

-إنك مازلت صامتًا بهذا الشكل .....

- ملكة العالم، إن التاج ينزع من أجل الملوك. ولوأخذه أي جندي غبي ووضعه على رأسه، فلن يضر ذلك التاج في شيء، وتصبح رأس الجندي غلافا للسيف.

-إن كلامك ساحر مثل هيئتك! ولكن...

وقبل أن يكمل جملته، خلا البرج من ضياء رائحتها العطرة[٥٦].

أما مرحلة المعاناة الحقيقية والأشد وطأة على السلطان، والتي جاهد نفسه فيها بشدة؛ حتى لا تطغى عاطفته على قراراته كملك للمسلمين، كانت في المرحلة الثانية، وهي المرحلة التي تحول فيها يوسف بن نجم الدين أيوب إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي، وفيها ظهرت معاناة السلطان في أحلام اليقظة التي ظل يراها حتى أواخر لحظات حياته، والتي كانت تزوره فيها الملكة إليانور، وتستعطفه لنجدتها، وفك أسر ابنها الذي لا سبيل له إلا عن طريق غزو أوروبا. ومنها على سبيل المثال ما يلي:

المثال الأول

"تقلب على جنبه بصعوبة، وتأوه.

جاءت إيلينوربيطء، وجلست على ركبتيها أمام قاعته.

يوسف، لو لم ينصرك قدرك، ولو لم تكن على الملوك سيدًا، لأصبحت في أيدي الصليبيين خادمًا، وامتثلت في حضرتنا مقيدًا بالحبال كالحيوانات، فنقسم بالمسيح لاستقبلناك بمثل هذا الاستقبال الذي يجعل أسرتك تفتخر بك قرونًا عديدة، ولأسمعناك قصص كرمنا. إن القصيدة التي غناها همـــفري صاحب (تبنين) في شأنك، قد ساورنا الشك في صحتها لأول مرة اليوم.

– نحن مريض يا إيلينور.

– مريض؟ كنت تقول بأنه عندما نمتطي الجواد من أجل الجهاد، فينزل المرض من رقبتنا ويمسك بركابنا.

– لو تطلبين، فنرسل بعثة السفير لإطلاق سراح ريتشارد.

– لكن ياإيلينور! نحن على يقين بأن خبر مرضنا سوف يصل قبل بعثة السفير، وسوف يأسرون سفراء الملك المهزوم، ويُلحق الضرر والأذى بهيبة المسلمين.

– تقبل الفارس المُضحي بعزة وحياة شاب أسير ابن امرأة مسنة مقهورة من أجل الوهم الكاذب لخزي المسلمين. سلام إيلينور.

ورفعت الستارة وخرجت. أراد أن يقول شيئًا، لكن ظل الصوت يصاحبه. أخفى وجهه بكلتا يديه، وأغمض عينيه، ودعا بقلب خاشع:

"إلهي، نجنّي من هذا الاختبار! نجحني في هذا الامتحان"[٥٧].

ويستمر السلطان في معايشته لهذه المعاناة حتى أواخر لحظات حياته من جراء ذلك الصراع النفسي الذي يخوضه بين عقله وقلبه، والذي يبذل فيه قصارى جهده لمجاهدة قلبه؛ حتى لا يغلب على عقله، ويسيطر عليه، ويدفعه لاتخاذ قرار غير راضٍ عنه. ونوضح ذلك من خلال المثال التالي الذي يظهر فيه السلطان على فراش الموت، وهو في النزع الأخير، وبالرغم من فقدانه للوعي بين حين وآخر، إلا أنه حين استعاد وعيه للحظات توهم أمامه رؤيته لصديقه قحطان الذي جاء إليه حاملاً تلك الرسالة من الملكة إليانور، والتي بسببها عانى السلطان من ذلك الصراع الداخلي، وحمل على كاهله أعباء ذلك الصراع الذي لازمه، حتى أواخر لحظات حياته. مما يدل على مدى سيطرة تلك الأفكار المتعلقة بغزو أوروبا ولقائه بالملكة إليانور من جديد على عقل السلطان. ونبين ذلك من خلال المثال التالي:

"---------- وفجاة فتح السلطان عينه، فرأى وكأن قحطان يقف أمامه.

قحطان!

كان يقف باهتًا شاحبًا مثل كأس التسول، يستجدي الخير للبلاد والعباد، ويتمنى

خلاصها من الحروب والدمار، في انتظار كلمة واحدة من السلطان، تستطيع أن تخمد نيران جهنم الحروب التي دمرت العديد من البلاد. ظل ينظر إليه نظرات ضعيفة، ثم أشار إليه أن يقترب، فأطبق جفنيه، ثم فتح عينيه، فإذ بالمفتي الأعظم يقف أمامه يتلو القرآن، فزال الحمل عن كاهله، وراح يسبح في بحر معاني آيات القرآن الكريم، وعندما ذكر قاضي القضاة كلمات الآية الكريمة {لا إله إلا هو}، كررها السلطان بلسانه، وعندما قرأ قوله تعالى {عليه توكلت}، تبسم السلطان، واستنار وجهه فجأة، وأسلم روحه لصاحبها.

{إنا لله وإنا إليه راجعون}"[٥٨].

أوضحنا من خلال المثال السابق ذلك الصراع الذي ظل السلطان يجاهده حتى آخر لحظات حياته، فما كاد يتخلص من رؤيته لطيف الملكة إليانور، إلا وظهر له طيف صديقة المسيحي قحطان، الذي كان يقف أمامه يرجوه أن يصدر حكمه بإعطاء فرمان بتسيير الجيوش الإسلامية لغزو أوروبا، إلا أن السلطان ظل يجاهد نفسه حتى آخر لحظة له على قيد الحياة. فأطبق جفنيه حتى يخبر عقله أن مايراه هو طيف، وليس بحقيقة، حتى رحمه الله من تلك المعاناة، وتوفاه وهو راض عن نفسه، ثابت على إيمانه بمبادئه فيما يتخذه من قرارات.

وهكذا نكون قد استعرضنا سويًّا ملامح الصراع النفسي الذي عايشه السلطان صلاح الدين منذ مجيء صديقه المسيحي القديم حاملاً رسالة الملكة إليانور التي كانت سبب شقائه.

أما بالنسبة للصراع النفسي الذي عايشه عماد الدين بطل رواية صلاح الدين الأيوبي لجرجي زيدان، فلم يكن على نفس الصراع والمعاناة التي عايشهما صلاح الدين الأيوبي بطل رواية قاضي عبد الستار؛ حيث لم يكن عماد الدين مغرمًا في بداية الأحداث بسيدة الملك، ولم تكن بينهما قصة حب مثل تلك القصة التي أوضحناها من علاقة صلاح الدين بالملكة إليانور للكاتب قاضي عبد الستار. ولهذا السبب لم نشعر بمعاناةعماد الدين أو الصراع النفسي الشديد بين عاطفته وواجبه، غير أن الكاتب قد أوضح لنا أن عماد الدين كان يُكِنُّ مشاعر إعجاب لسيدة الملك، وتمثل ذلك حينما أرسلت سيدة الملك رسالة لعماد الدين تدعوه لرؤيتها؛ لتشكره على ما أظهره من شجاعة حين أنقذها يوم حرب العبيد، فوجدها عماد الدين فرصة سانحة؛ ليحثها على الموافقة على الزواج من سلطانه صلاح الدين الذي كان قد أرسل صديقه عيسى الهكاري حديثًا لخطبتها، فتملكت منه مشاعر الغيرة حين فكر في هذا الأمر. وهو ما نوضحه من خلال المثال التالي:

"قال الغلام: حسنًا. سأمكث في انتظارك تحت هذه الجميزة بجانب الخليج..... قال ذلك، وخرج، وترك عماد الدين مثل الجمر من القلق. فلما خلا بنفسه، استأنف النظر إلى ذلك الكتاب وأعاد قراءته، وتذكر المرة الأولى التي شاهد فيها صاحبة ذلك الشِّعر، وما سمعه عنها أمس من أمر صلاح الدين، فرأى أنه قد يستطيع خدمة مولاه بإجابة سؤالها فيحرضها على قبوله. ولما تصور ذلك هبت الغيرة في قلبه، ولكنه تعمد الإغضاء عن هذا الشعور حبًّا في مصلحة مولاه"[٥٩].

أوضح لنا الكاتب في المثال السابق بداية تملك مشاعر الغيرة من عماد الدين، مما يدل على أنه يُكِنّ مشاعر حب تجاه سيدة الملك، لكنه رفض أن ينصاع وراء تلك المشاعر، وقدَّم مصلحة سلطانه صلاح الدين على تلك المشاعر. مما يوضح أن ما يفرضه عليه الواجب قد تغلب على عواطفه.

هذا، ويستمر عماد الدين في تغليب مصلحة سلطانه صلاح الدين وواجبه تجاهه فوق مصلحة عواطفه، التي شعر بها تجاه سيدة الملك، ويتضح ذلك حين صرحت له سيدة الملك بحبها، فأعرض عن مبادلتها نفس مشاعر الحُب؛ نظرًا لأنه كان يعلم بإرسال سلطانه صلاح الدين صديقه عيسى الهكاري لخطبتها له. كما كان في نفس الليلة التي صرحت له فيها سيدة الملك بعشقها له خارجًا في مهمة يمليها عليه واجبه تجاه صلاح الدين؛ للقضاء على راشد الدين سنان زعيم الحشاشين. ونوضح ذلك من خلال المثال التالي:

"..... فقالت: لا غرابة في تقديمك؛ فأنت أهل لأكثر من ذلك. إنك أمير وسيد، وستنال مقامًا لم ينله صلاح الدين، ولن يناله هو ولا غيره من السلاطين أو الأمراء. هذا إذا شئت. وتلعثم لسانها، وغلبت على أمرها، وأبرقت عيناها، وبان الحياء في محياها.....

أما هو، فلم يبقَ عنده شك فيما تعنيه واستعظمه منها، وهاجت عواطفه وأحس بعطف جديد نحوها بعد أن سمع تصريحها أنها تحبه، وأنها تفضله على صلاح الدين. لكنه تذكر أن مولاه صلاح الدين يريدها مع أنه لا يرجو أن ترضى به، فاستنكف أن يقوم مقامه أو يقف في سبيله أو يعتدي عليه وهو صنيعته، وقد صمم أن يفتديه بروحه. فلم يتمالك عن النهوض، وقال: إن سيدتي بالغت في إطراء عبدها كثيرًا، فأنا صنيعة مولاي السلطان، ولا أخفي عنها إني ذاهب الليلة في مهمة تخصه، وأخاف أن أتأخر عنها إذا أطلت المقام هنا.

فأمسكت بيده، وأجلسته، وقد ظهرت أنفة الملوك في وجهها، وقالت بصيغة الأمر: لا. لست عبدًا لأحد ولا صنيعة أحد. وقد قلت لك إنك أمير وسيد. لا. لا ينبغي أن تذهب في خدمة أحد، إني في حاجة إليك، وقد استصرختك. أين حميتك ومروءتك؟

فلما قبضت على يده، سرت الرعشة في أعضائه، وجلس بالرغم منه. لكنه حين سمع كلامها خشي أن يغلب على أمره، فقال وهو يتحفز النهوض: إن هذه المروءة نفسها تحملني على الذهاب الآن؛ لأني تعهدتُ بأمر لابد من الذهاب فيه، وهو يخص مولاي صلاح الدين. وإذا كانت مولاتي ترى في هذه المناقب وأنا صنيعة صلاح الدين وخادمه، فكيف لو عرفته هو؟ ....."[٦٠].

أوضحنا من خلال المثال السابق قوة إرادة عماد الدين، والتي تمثلت في مجاهدته لنفسه أمام سيدة الملك التي تصرح له بحبها وتلمح له برغبتها في الزواج منه وعدم الخضوع لسلطان الحب وعواطفه، التي لا يستطيع أحد السيطرة عليها أو الوقوف أمامها في مثل ذلك الموقف، فكان ثابت العزم على إنفاذ قسمه والخروج لقتل زعيم الإسماعيلية، فلم يسمح لعاطفته التغلب عليه أو أن تثنيه عن القيام بمهمته، كما أوضح المثال شدة احترام عماد الدين لسلطانه صلاح الدين، والذي تمثل في دفاعه المستميت عن سلطانه، والإشارة إليه دائمًا داخل حديثه مع سيدة الملك، ومحاولة لفت نظرها إلى مناقب وصفات صلاح الدين، والتقليل من شأن نفسه التي يراها من صنع سلطانه، مما يجعلها دائمًا في خدمة صانعها، وهو ما يدل على التواضع الشديد الذي يتمتع به عماد الدين وشدة حبه لسيده صلاح الدين.

ثم بدأت العاطفة تتغلب على عماد الدين، ولكنها كانت عاطفة ممزوجة بشهوة كادت تنسيه واجبه تجاه صلاح الدين، ومهمته التي خرج إليها قاصدًا قلعة مصياف؛ لقتل شيخ الجبل، وتنسيه أيضًا سيدة الملك التي ظلت تحلم بيوم رجوعه، وذلك حين غلب على أمره ووقع في غرام حورية من نسج خياله صورها له عقله، حين دخل جنة شيخ الجبل

التي وجد نفسه بها بعد تناوله كأسًا من الشراب أعطاه له إياه شيخ الجبل. وبالرغم من مقاومة عماد الدين لتلك الحورية ومحاولة السيطرة على عواطفه ويقظة ضميره الذي أخذ يذكره بحبه لسيدة الملك، إلا أنه قد غلب على أمره في النهاية، ووقع في غرامها، وأراد تبادل الحب معها. ويتضح هذا من خلال المثال التالي:

" وكان قد شعر براحة لتلك الحورية؛ لطول رفقتها وكثرة ما بذلته في سبيل استرضائه واجتذاب قلبه، وهو شاب في مقتبل العمر، فغلب على اعتقاده أنه في جنة أو مكان يشبه الجنة، انتقل إليه بكرامة أو معجزة من معجزات راشد الدين. وأوشك أن يُشغل عن سيدة الملك، فلما سمع ذلك الصوت، توهم أنه صوت ضميره؛ للثبات فيحب حبيبته فلا يشتغل عنها بسواها. فأحس بانقباض، ورغب في الخروج من ذلك النعيم..... وجلست تلك الحورية جانب عماد الدين، وهي تلاطفه، وتقدم له اللقمة بعد اللقمة، وتبالغ في إكرامه. والغلمان وقوف بين أيديهما؛ لتلقي الأوامر، فعاد عماد الدين إلى نسيان سيدة الملك، وقد سحرته تلك الفتاة بجمالها ولطفه، ولاسيما بعد أن دارت الأقداح وفيها الخمور اللذيذة، فأصبح لا يفكر في غير تلك الساعة، وقام في ذهنه أنه في النعيم حقًّا.

ولما رأت تلك الفتاة ميله ورضاءه، أخذت في الإعراض عنه، وهو يزداد شغفًا، وقد زادته الخمور اندفاعًا، حتى أصبح يتزلف إليها ويغازلها وهي تتمنع، فلما تحققت من افتتانه بها قالت: لا تخرج عن حدك، فأنت إنما جئت إلى هنا على سبيل التجربة....."(٦١).

النتائج:

وفي ختام هذا البحث نكون قد استعرضنا روايتي صلاح الدين الأيوبي، بين كل من الكاتبين قاضي عبد الستار، وجرجي زيدان. وأوضحنا التقنيات التي استعان بها كلا الكاتبين في حبكة روايته. وخلصت الدراسة إلى النتائج التالية:

١-إصابه البناء الروائي لرواية الكاتب جرجي زيدان بالتفكك نتيجة اعتماده على المصادفات في افتعال الأحداث، مما أفقد الحدث مصداقيته. واستعانته بالكثير من الأحداث التي حولت أحداث الرواية إلى مقاطع أو مشاهد، وهو أيضًا ما أصاب البناء الفني للرواية بالضعف والخلل، بالإضافة إلى اعتماده بشكل أساسي على أحداث خيالية لا تمت للتاريخ أو الأحداث التاريخية والحقيقة بأي صلة، مما أخرج روايته في النهاية في شكل رواية مشوقة مليئة بالأحداث الشيقة، التي تجعل القارئ يتغاضى عن رموز التاريخ الإسلامي وأحداثه، ويتناسى صلاح الدين الأيوبي الذي كان لابد أن يكون البطل الرئيس للرواية، حسب ما ينص عليه اسم الرواية، وهو (صلاح الدين الأيوبي).

٢-جاء جرجي زيدان بحبكة رواية (صلاح الدين الأيوبي) حبكة نمطية، مثلما اعتاد عليه في أكثر رواياته المسماة روايات تاريخية. ويمكننا القول بأنها حبكة ذات منطق أجوف؛ نتيجة الاعتماد على المصادفات. وتلخصت حبكته في واقعة الغرام بين سيدة الملك والشاب عماد الدين التي حالت الظروف بينها في هذا الحب، ففي اليوم الذي تستدعي فيه سيدة الملك الشاب عماد الدين وتصرح له بإعجابها له، يفاجئها عماد الدين بسفرته التي يستعد من أجلها للخروج في نفس الليلة من القاهرة، وهنا تكمن عقدة الحبكة، حيث يخرج عماد الدين في رحلته إلى قلعة مصياف كما ذكرنا سابقًا، وتتوالى الأحداث، وتبدأ العقدة في السير باتجاه الحل، وتتكشف تدريجيًّا، حتى يلتقي عماد الدين مصادفة بسيدة الملك في قلعة مصياف، فينقذها، ويعودا سالمين إلى القاهرة، وتنتهي الحبكة نهاية سعيدة بزواجها.

٣ -أما قاضي عبد الستار، فقد حاول قدر استطاعته الحفاظ على روح الرواية التاريخية؛

فبالرغم من كثرة الأحداث الخيالية داخل روايته، إلا أنه قد طعمها بعدد من الأحداث التاريخية التي خلدها التاريخ الإسلامي على صفحاته، ومنها: واقعة حطين العظيمة بزعامة القائد صلاح الدين الأيوبي، تلك المعركة التي استرد العالم الإسلامي من خلالها بيت المقدس من أيدي الصليبيين بعد مرور قرن من الزمن على احتلال الصليبيين له. وغيرها من المعارك التي خاضها السلطان صلاح الدين ضد الصليبيين، وعرضها الكاتب على صفحات روايته، مما صبغ روايته بالصبغة التاريخية، وجعلت من صلاح الدين الأيوبي البطل الرئيس لروايته.

٤ –بالرغم من القفزات في بعض أحداث الرواية، إلا أن هذه القفزات لم تصب البناء الفني للرواية بالخلل، ولم تشتت ذهن القارئ أو تفصله عن الأحداث عامة.

ولكن يؤخذ على قاضي عبد الستار تلك القفزة السريعة في الأحداث، التي انتقل فيها من رحلة يوسف وهو يمر في طريق عودته إلى دمشق بعدما ودعته الملكة إليانور على شاطئ نهر الأردن، فمر أثناء عودته على عدة مدن: بمدينة شابك، ومنها إلى الكرك، ثم عسقلان، وانتهى بوجوده في بيت المقدس، وهو لايزال متنكرًا في زي راهب مسيحي. ثم قفز الكاتب فجأة بالأحداث، فإذا بنا نرى يوسف وهو في مصر يشغل منصب رئيس الوزراء، دون أن يخبرنا الكاتب كيف دخل مصر؟ وكيف استطاع الحصول على هذا المنصب؟ فكان الكاتب يستطيع أن يتغاضى عن ذكر تلك الرحلة الخيالية المشوقة التي نسجها حول يوسف، ويذكر بدلاً منها الأحداث التاريخية كما جاءت في كتب التاريخ، والتي جعلت من يوسف رئيس وزراء مصر، بداية من استنجاد شاور أحد وزراء مصر بنور الدين محمود زنكي؛ ليعينه على وزير آخر هو ضرغام، فسير إليه نور الدين كل من أسد الدين شريكوه وابن أخيه يوسف صلاح الدين إلى مصر ثلاثة مرات، حتى أصبح شريكوه رئيس وزراء مصر، وبعد وفاته، خلفه ابن أخيه يوسف في منصب رئيس الوزراء.

٥ – كانت حبكة رواية قاضي عبد الستار حبكة منظمة، تسلسلت فيها الأحداث حتى وصلت إلى ذروتها، ألا وهي العقدة، ثم استمرت الأحداث في التوالي، حتى أوشكت أحداث الرواية على الانتهاء. ومع انتهاء أحداث الرواية نجد أن الكاتب لم يضع نهاية مغلقة لها، فلم يقدم حلاً لعقدة روايته. بل ترك نهاية أحداثها نهاية مفتوحة، وترك المجال للقراء؛ ليضع كل منهم نهاية لأحداثها حسب توقعاته من خلال ما مرت به الرواية من أحداث.

Abstract

The plot between the novel "Salah al-Din Ayyubi" For: "Qazi Abdel Sattar," Gergi Zidane " Comparative study

By Amira Ahmed Maher Mohamed

This study deals with a comparative study between the plot of two historic novels and both have the same title "Salah ElDin ElAyoby" for the Urdu author "QadyAbdelSattar" and the Arabic author "Jurji Zaydan".

The researcher has followed in this study the Comparative Approach, which based on the comparative study for the plot and its elementsand explaining the deference between events in the two novels in front of the reader.

The researcher divided this research into preface and three topics; the preface deals with the plot definition and its structure, followed by the general lines of the events of the two novels for "Qady AbdelSattar" and "Jurji Zaydan" separately, and the study of plot and its development stages through the narration of the novels till the end.

The First topic entitled "Author interference in the course of events"deals with how the two authors are using thedescription technology in disabled the course of events.

The second topic entitled "Reliance on coincidences" deals with how the authors relies on the coincidences in order to fabricate eventsinside their novels.

The third topic entitled "Reliance on the element of excitement and thrill" deals with the deference between the two authors in the reliance of this element, followed by the element of the dramatic conflict, which explain the conflict between the passion and duty through the hero's life in the two novels.

In conclusion, I hope that I have been able in the presentation of this research, which we hope that it will be a good addition to comparative studies between the Arabic literature and the Urdu literature, Specially that the authors do not differ only in language and literature, but also differ in faith and doctrine.

الهوامش

١- د.نبيل راغب، موسوعة الإبداع الأدبي- لونجمان- القاهرة- ١٩٩٦م- صـــ ١٢

٢ - أ. م. فوستر، أركان القصة- ترجمة: كمال عياد- الهيئة المصرية العامة للكتاب-٢٠٠١- صـــ ١٠٥.

٣ - د.حامد عبد اللطيف، قضايا الفن الروائي في أدب يوسف السباعي- مخطوط كلية الأداب- جامعة طنطا- صـــ ١٤٤.

٤ - عظيم الشان صديقی: اردو افسانہ فکری وفنی مباحث- ایجوکیشنل پبلشنگ ہاوس- دهلی- ٢٠١٠- صـــ ٢٣.

٥ - عظيم الحق جنيدی، اردو ادب کی تاريخ- -ايجوکيشنل بک ہاوس - علی گـڑھ - ١٨ فروری - ١٩٧٨ء.- صـــ ٢٢٩. وانظر أيضًا: سنبل نگار: اردو نثر کا تنقيدی مطالعہ- -ایجوکیشنل بک ہاوس - علی گـڑھ - ٢٠٠٥ء.- صـــ ٨١.

[٦] – علی عباس حسینی، اردو ناول کی تاریخ اور تنقید –ایجوکیشنل بک ہاوس – علی گـڑھ– ایڈیشن ١٩٩٤ء – صـــ ٦١.
[٧] – عظيم الحق جنيدي، اردو ادب کی تاریخ– مرجع سابق– صـــ ٢٢٩. وانظر أيضًا: پروفیسر سید عابد علی عابد: اصول انتقاد ادبیات، سنگ میل پبلی کیشنز – لاہور – ١٩٩٧ء.– صـــ ٥٠٢: ٥٠٣.
[٨] – سنبل نگار: اردو نثر کا تنقیدی مطالعہ – مرجع سابق– صـــ٨٠.
[٩] – پروفیسر امجد علی شاکر، اردو ادب تاریخ وتنقید–بہ نظر ثانی: اقبال صلاح الدین: عزیز پبلشرز – اردو بازار – لاہور – ١٩٩٧ء – صـــ ٣٣٨.
[١٠] – ڈاکٹر سلام سندیلوی، استاد شعبہ اردو، گور کھپور یونیورسٹی : ادب کا تنقیدی مطالعہ – مکتبہ میری لائبریری لاہور.– صـــ ٨٧.
[١١] – المرجع السابق – صـــ ٨٨.
[١٢] – سنبل نگار: اردو نثر کا تنقیدی مطالعہ – مرجع سابق–صـــ ٨٠ :٨١.
[١٣] – د. نبيل راغب– موسوعة الإبداع الأدبي– مرجع سابق– صـــ ١٢٠.
[١٤] – ڈاکٹر سلام سندیلوی، ادب کا تنقیدي مطالعہ – مرجع سابق– صـــ ١١٦.
١٥ – المرجع سابق– صـــ ١١٦: ١١٧.
[١٦] – المرجع سابق – صـــ ١١٧.
[١٧] – ڈاکٹر سلام سندیلوی، ادب کا تنقیدي مطالعہ – مرجع سابق – صـــ ١١٨.
[١٨] – المرجع السابق – صـــ ١١٨.
[١٩] –المرجع السابق – صـــ ١١٩.
[٢٠] – عبد الفتاح عثمان، بناء الرواية–مكتبة الشباب– القاهرة– ١٩٨٢ م– صـــ ٤٧.
[٢١] – المرجع السابق– صـــ ٤٩.
[٢٢] – روجر هيئكل، قراءة الرواية – ترجمة صلاح رزق – مكتبة غريب – القاهرة – صـــ ١١٦
[٢٣] – رانيا محمد توفيق صبري، أدب الأطفال عند كرشن چندر– من خلال رواية الشجرة المقلوبة:"الٹا درخت"– بحث غير منشور للحصول على درجة الماجيستير– جامعة عين شمس– كلية الآداب– ٢٠٠٧ م– صـــ ٢١٧.
[٢٤] – د.عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه– دار غريب– القاهرة– صـــ ١٩١.
[٢٥] – فؤاد قنديل، فن كتابة القصة– الهيئة العامة لقصور الثقافة– سلسلة كتابات نقدية– العدد ١٢٣– القاهرة ٢٠٠٢ م– صـــ ٢٠٥، ٢٠٦.
[٢٦] –الحشيشة: هی طائفة اتسمت بأعمال القتل والأغتيال المتعددة التی كان يصعب حصرها فی عصر الحروب الصليبية، وتعرف هذه الطائفة أيضاً باسم الأسماعيلية، والباطنية والنذارية غير أن بعض المصادر العربية قد فضلت نعتهم بـــ (الحشيشية) لتناولهم الحشيش وغيابهم عن الوعي. وهي طائفة شيعية حاولت بكل ماتحملة من قوة وجبروت وبطش تأسيس دولة لها فی الشرق إلا أنها لم تستطع تحقيق هذا الحلم برغم محاولاتها العديدة والمتكررة بالأستيلاء على قلاع وحصون، وكل ما توصلوا إليه أنهم أقاموا منظمة قوية لها كيانها وزعامتها وحمايتها وأتباعها. وكان هدفهم فی الشرق هو بسط النفوذ الأسماعيلی وإيقاع الرعب فی نفوس المخالفين ونشر عقائدهم الشيعية بين الناس.
– انظر: د/عبد اللطيف عبد الهادی السيد: الحشاشون (دراسة فی ظاهرة الإرهاب فی الماضی والحاضر) –المكتب الجامعی الحديث –الأسكندرية –٢٠١١م. صـــ ١٧، ١٨
[٢٧] – "..... جب ملک العادل نے قبر میں میت اتار دی تب ملک العزیز ان مملکوں کی صف سے نکلے جو خاص سلطان المسلمین کی رکاب میں تربیت پائے ہوئے تھے اور جن کی اولاد کے نام یہ شرف لکھا گیا تھا کہ نصف صدی بعد جنگیز کے فاتح عالم فوجوں کو پامال کریں اور قاہر مغلوں کی مغرور گردنوں سے قاہرہ کی گلیاں بھر دیں - شاہزادۂ افضل کے دونوں ہاتھوں پر رکھی ہوئی وہ تلوار اٹھالی جو چھبیس برس تک سلطان اعظم کے پہلو سے لگی رہی تھی - جس نے چھبیس برس تک اسلامیوں کی حفاظت کی تھی ، جس سے ساری دنیا کی عیسائی تلواروں نے پناہ مانگی تھی ، جس نے ایک صدی سے

کھوئے ہوئے سنگین صحیفے کو بازیاب کیا تھا - سادے فولادی ہالالی قبضے کو بوسہ دیا ، زرد چمڑے کے نیام کو ادب سے پکڑا اور آخری زیارت کے لئے علم کر دیا - آنسوؤں سے دھندلی آنکھوں کے سامنے کاغذ کی ایک لمبی پتلی چٹ نیام سے گر پڑی - ملک العزیز اسی طرح تلوار علم کئے ہوئے آگے بڑھے اور اس کے آقا کے پہلو میں لٹا دیا - کاغذ کا وہ پرزہ جو یورپ کی تاریخ میں ایک نیا باب کھولنے کے لئے دمشق آیا تھا لا علم قدموں کے نیچے کچل کر مر گیا جیسے قومیں تاریخ کے قدموں سے کچل کر مر جاتی ہیں - "- قاضي عبد الستار، صلاح الدين ايوبي- ايجوكيشنل بک ہاوس – علی گڑھ- ایڈیشن ۱۹۸۸ – صـــ ۱۹۲.

[۲۸] – جرجي زيدان، رواية صلاح الدين الأيوبي- جرجي زيدان – صلاح الدين الأيوبي – منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر – ۱۹۲۳م – صـــ ۲۸.

[۲۹] – المرجع السابق – صـــ ۳٦.

[۳۰]– المرجع السابق –صـــ ٦٤.

[۳۱] – المرجع السابق –صـــ ٦٥: ۸۰.

[۳۲] – المرجع السابق –صـــ۸۰.

[۳۳] – المرجع السابق صـــ ۳٥۷.

[۳٤] – " وہ کچھ دیر تک سوچتا رہا - پھر تالی بجائی - غلام کو حکم دیا -
" امیر عساکر ---- افسر الشرطہ ---- اور میر عدل کو طلب کیا جائے - "
افسر البرید نے پیشانی کی شکن سے بہت کچھ سمجھ لیا اور گزارش کی -
" بارگاہ خلافت سے حضور کی واپسی کے انداز کو امیر المومنین نے نا پسند فرمایا ہے -
خواجہ سرا حریم سے تخلیے میں گفتگو فرمائی - خاندان کے معتوب بزرگوں کے ساتھ عصر کی نماز ادا کی - اس کا امکان ہے کہ یہ چھوٹی چھوٹی باتیں کسی سیاسی طوفان کا پیش خیمہ بن جائیں - قاہرہ کے مضافات میں وہ ہزاروں سوڈانی شمشیر زن موجود ہیں جنھوں نے صدیوں خلافت کی خدمت کی ہے اور جن کو آپ نے معزول کر دیا ہے - "
اس کی سوچ گہری ہو گئی -

سنگ مرمر کے چبوترے پر قالینوں کا فرش تھا - آبنوسی کرسیوں کا سیمیں کام قد آدم شمعدانوں کی روشنی میں جگمگا رہا تھا - آسمان پر چاند روشن تھا - چبوترے کے نیچے چاروں طرف سنگ سیاہ کی نہر سے پانی اچھل رہا تھا جس پر سنگ مرمر کا چھوٹا ساپل تھا اور جس کی آخری سیڑھی سبزے پر رکھی تھی اور انجیروں کے جھنڈ کے پاس مسلح ترکمانوں کا ہجوم کھڑا تھا - آگے آگے میر عدل قاضی عماد الدین تھے جن کے سفید عمامے اور سفید جبے پر سیاہ داڑھی نے وجاہت کو دو چند کر دیا تھا - ان کے پیچھے امیر لشکر ملک العادل تھے - جن کے طر پوش میں پکھراج کی کلغی لگی تھی اور تلوار کا زرکار نیام زمین پر گھسٹ رہا تھا - ان کی پشت پر امیر الشرطہ طغرل تھے جو لوہے میں جکڑے جوانی کے نشے میں چور جھومتے چلے آ رہے تھے - ------- "-
قاضي عبدالستار، صلاح الدين أيوبي - صـــ ۷۷ : ۷۸

[۳٥] – جرجي زيدان، رواية صلاح الدين الأيوبي- صـــ ۸۰: ۸۱.

[۳٦]–"تم فرنچ جانتے ہو ؟"
"نہیں ، میری ماں شامی ہے -"
"فرانس کی بارگاہ میں ہتھیار باندھ کر آنے والے اجنبیوں کی سزا جانتے ہو ؟"
"موت ------ لیکن میں نہ تو اجنبی ہوں اور نہ آیا ہوں -"
"وہ کیسے ؟"
" میرے دادا فرانسیسی تخت وتاج کے جوشیلے خادم تھے اور وہی خون میری رگوں میں اچھلتا ہے اور میں یہاں تلواروں کی نوک پر لایا گیا ہوں اور پادریوں پر حملے

عیسائی نہیں کرتے جن سے بچنے کے لئے زرہ اور خنجر کی ضرورت محسوس ہو -"
ملکہ نے مسکرا کر دیکھا اور وہ مطمئن ہوگیا - ----------
" ہمارا خیال ہے کہ کم سنی کی اس رہبانیت کے مقابلے میں بادشاہوں کی خدمت میں رہ کر اور بڑے بڑے کام انجام کے دے کر مسیح کی زیادہ خوش نودی حاصل کی جا سکتی ہے "
" میں ----- میں ملکہ عالم کا مطلب نہیں سمجھا - "
" ہم تم کو اپنے ذاتی محافظ دستے میں شامل کر سکتے ہیں - "
اور اس کے منہ سے بے اختیاری میں نکل گیا -
" میں اپنی زندگی کی اس زرین سعادت پر عمر بھر فخر کرتا رہوں گا - " – قاضي عبدالستار، صلاح الدين أيوبي- ص ٢١ : ٢٢.

[٣٧] – " جنگل کا بادشاہ اپنے حرم سے نکلا تھا اور دہشت کا ایک ذرہ اس کی پیشوائی کیآواز سے دھڑک اٹھا تھا - ہر اساں آفتاب اس کے سینے پر ڈھلک آیا - ملکہ کے خود کی کلغی اس کی ٹھڈی سے لگ گئی - پھر اس کی ڈھونڈتی ہوئی نظروں سے دیکھا کہ تھوڑی دور پر شاہانہ چال چلتا ہوا ان کی موجودگی سے بے نیاز شیر بائیں ہاتھ کی اونچی جھاڑیوں میں غروب ہوا چاہتا ہے - کوئی اور وقت ہوتا تو دمشق کے والی کا چہیتا ولی عہد اس فرصت کو غنیمت سمجھتا لیکن ان چند لمحوں میں وہ جوان ہو چکا تھا - مرد بن چکا تھا اور اپنے سینے سے لگی ہوئی عظیم الشان خاتون کی نگاہوں میں اعتبار حاصل کرنے کے لئے بڑے بڑے لشکروں سے ٹکرا سکتا تھا - اس نے ملکہ سے الگ ہو کر پھرتی اور قوت سے شیر پر نیزہ مارا اور اسی لمحے تلوار گھسیٹ کر جھپٹا - پہلو میں دھنسا ہوا نیزہ لئے اور دہاڑتا ہوا شیر اس پر چڑھ آیا ہر چند اس کے ہاتھوں میں اجنبی تلوار تھی لیکن تلوار تھی - تھوڑی دیر میں شیر کا فیصلہ ہوگیا - لیکن اس طرح کہ قبا کی بائیں آستین اس کے خون سے لالہ کار ہو گئی - اس نے منجھے ہوئے شکاریوں کی طرح پورے حواس کے ساتھ اپنی خون آلود تلوار مردہ شیر کی گردن کے بالوں سے رگڑ کر صاف کی - اسی لمحے اس نے دیکھا کہ ملکہ آنکھوں پر ہاتھ رکھے انگلیوں کے بیچ سے اسے دیکھ رہی ہے - پھر وہ تقریبا دوڑتی ہوئی آئیں اور اس کا خون دیکھ کر چیخ اٹھیں اور اس کے دامنے شانے پر جھول گئیں" - قاضي عبدالستار، صلاح الدين أيوبي صـــ ٢٣ : ٢٤.

[٣٨] – د.عبد الجواد المحص، الروايات التاريخية عند جرجي زيدان بين الفن والتاريخ– دار نهضة مصر– القاهرة– ٢٠٠٣م – صـــ ٤٣٠.

[٣٩] – المرجع السابق – صـــ ٤٢٩.

[٤٠] – جرجي زيدان، رواية صلاح الدين الأيوبي– صـــ ٥٤ :٥٥.

[٤١] – المرجع السابق– صـــ٢٤٣: ٢٤٥.

[٤٢] –المرجع السابق– صـــ ٢٥١: ٢٥٢.

[٤٣] – المرجع السابق– صـــ ٢٦٤.

[٤٤] – المرجع السابق– صـــ ٢٣٥: ٢٣٦.

[٤٥] – المرجع السابق– صـــ ٣٤١: ٣٤٢.

[٤٦] – محمد يوسف نجم، القصة في الأدب العربي الحديث– الطبعة الثالثة– بيروت– دار الثقافة– ١٩٦٦م – صـــ١٨٢.

[٤٧] – " اب بنی امیہ کی عظیم الشان مسجد کا روکار سامنے تھا - وہ اس کا جاہ و جلال دیکھتا ہوا اس کی پشت کے بازار میں آ گیا اور ایک چنچتے چلاتے حمام کے سامنے اپنا خچر روک لیا - ایک غلام نے لپک کر اس کے ہاتھ سے لگام جھپٹ لی اور وہ سرخ پتھر کے منقش چبوترے کے قالین پر پھیلے ہوئے مالک حمام کے سامنے کھڑا ہو گیا کہ شاید وہ اسے بیالیس برس بعد پہچان لے لیکن مالک کے سپاٹ چہرے اور خالی آنکھوں کو دیکھ کر وہ اندر گھس گیا - نہاد ہو کر جب ذرا جی ٹھکانے ہوا تو اس نے چاہا کہ اس

کمبخت فضیل سے دھول دھپا کرے اور بیالیس برس قبل کے ان واقعات کو زندہ کرے جو ہزاروں من یادوں کے نیچے دبے پڑے تھے لیکن اپنی خفیہ سفارت کی نزاکت کا خیال کر کے باز رہا اور ناف تک پھیلی ہوئی آبنوس کی صلیب پر اپنا داہنا ہاتھ رکھ کر سیڑھیاں اترا اور شہتوت کی چھانؤں میں بیٹھے نارگیلے پیتے ہوئے غلام سے لگام لے کر خچر پر سوار ہوگیا.....

دفعتًا ایک سوار گھوڑا اڑا کر اس کے سامنے آگیا - اس نے سینے پر صلیب بنائی اور گریبان سے ملک العادل کا پروانہ راہ داری نکال کر سوار کے حوالے کر دیا - وہ اسے وہیں روک کر واپس ہو گیا - قراقوش (افسر رسالہ) کی جنبش سر کے بعد اسے بڑھنے کی اجازت نصیب ہوئی.---------- پادری نے زمین کو چھوتا ہوا سلام کیا - حاجب بارگاہ نے ابرو کو جنبش دی - پادری آہستہ آہستہ کا شاخی مخمل سے منڈھی ہوئی سیڑھیاں چڑھنے لگا - آخری سیڑھی پر مسلح غلاموں نے پادری کا بازو پکڑ لیا اور خطا کا بیش قیمت پردہ ہٹا کر اسے قبے میں داخل کر دیا---------- سلطان اعظم کسی سوچ میں ڈوبے ہوئے تھے - قدموں کی چاپ پر نگاہ اٹھائی - پادری گھٹنوں پر گر گیا - اشارہ پاتے ہی خدمت گزاروں نے پادری کو کھلونے کی طرح اٹھا کر تخت کے نیچے بچھے ہوئے سفید قالین پر رکھ دیا------ اس نے کانپتے ہاتھوں سے اپنی اصلیت اتاری اور اس کے اوپر کا حصہ پکڑ کر پوری طاقت سے زور کیا - صلیب کھل گئی - خول سے ایک موم جامہ نکال کر آنکھوں سے لگایا اور دونوں ہاتھوں پر رکھ کر گھٹنوں کے بل کھڑا ہو گیا---------- پادری نے مکالمے ہوئے گزارش کی

" میری استدعا ہے کہ اسے سلطان اعظم کے دست مبارک میں دے دیا جائے - "

------ فرمان کے منتظر حاجب کو دیکھ کر گکردن ہلا دی - وہ پادری کو لے کر آراو خانہ خاص کے باہر چلا گیا-"- قاضي عبدالستار، صلاح الدين أيوبي- صـ ٦ : ٩.

[٤٨] -" مغرب سے آئے ہوئے اسقف کو طلب کیا جائے - "

" کل ہماری طبیعت بھی بحال نہیں تھی اور ہم نے تم کو ٹھیک سے پہچانا بھی نہیں تھا -

" تمھارے بال تو ہم سے بھی زیادہ سفید ہو گئے - "

" موٹے ہو کر سچ مچ پادری معلوم ہونے لگے ہو - "

اور ایک قہقہہ لگایا جس نے قحطان پر مسلط رعب سلطانی کو دھو ڈالا - اور اس نے اپنے آپ کو گفتگو پر آمادہ کر لیا -

" اس خطرناک سفارت پر تمھارے انتخاب کے معنی یہ ہیں کہ ایلیانور کو تم پر مکمل اعتماد ہے ---------- "- قاضي عبد الستار، صلاح الدين أيوبي- صـ ١٤٨ : ١٥١.

[٤٩]- جرجي زيدان ، مقدمة رواية الحجاج بن يوسف. دار الجيل – بيروت – لبنان – الطبعة الثانية –.

[٥٠] – د. علاء الدين سعد جاويش، ملامح الرواية عند جرجي زيدان- مؤسسة حورس الدولية- الإسكندرية- ٢٠١١م – صـ ١٢٨.

[٥١] – د. علاء الدين سعد جاويش، ملامح الرواية عند جرجي زيدان- مرجع سابق- صـ ١٣٣.

[٥٢] – نجيب الكيلاني، آفاق الأدب الإسلامي- مؤسسة الرسالة- بيروت- الطبعة الأولى- ١٩٨٥م – صـ ١٠٩.

[٥٣] – عبد العزيز حمودة، البناء الدرامى للمسرحية- دار المعارف- القاهرة- صـ ١١٨.

[٥٤] – عبد الفتاح عثمان، بناء الرواية-مرجع سابق- صـ ٨٣.

[٥٥] – نجيب الكيلاني، آفاق الأدب الإسلامي- مرجع سابق- صـ ١٠٧.

[٥٦] – "ہماری آرزو ہے کہ تمہارے سوا کوئی آرزو نہ کریں -"

" کیا اچھا ہوتاکہ تمھارے سر پر "ایٹیک" کا تاج ہوتا اور تمہارے قدموں میں "ایٹیک" کا تخت -"

"لیکن ملکۂ عالم -"
"مذہب تمہاری ذاتی چیز ہے جسے تم اپنی کی تنہائی تک محدود رکھ سکتے ہو-"
"یہ کیسے ممکن ہے؟"
"بادشاہت کے دوسرے ناگوار لوازمات کی طرح چند مذہبی رسوم کی ظاہری بجا آوری بھی برداشت کی جاسکتی ہے -"
" لوئی ؟ --- لوئی کو پرانے تاج کی طرح تبدیل کیا جاسکتا ہے -"
"لیکن تم چپ ہو -
"تم بولتے کیوں نہیں ؟
" بولو ---تمہاری بھیانک خاموشی سے ہماری ہڈیاں گھپلی جاتی ہیں -"
" تم خاموش ہو --- محبت ایک لفظ ہے جسے زبان کی ایک حقیر سی لغزش ادا کر دیتی ہے لیکن اس پر ثابت قدم رہنا بڑے بڑے بادشاہوں کے لئے بھی دشوار ہے -"
"یوسف --- اگر تم مشرق میں ایک سلطنت پیدا کر سکو اور ہم کو مذہب کی ذاتی آزادی دینے کا وعدہ کرو تو ہم مغرب کا ایک جلیل المرتبت تاج اتار کر ایشیائی گورنر کے چھوٹے سے ولی عہد کی سوتی پگڑی قبول کر سکتے ہیں -"
" تم اسی طرح ساکت ہو ----------
"ملکۂ عالم‌تاج بادشاہوں کے لئے اتارے گئے ہیں -اگر کوئی بیوقوف سپاہی اپنے سر پر رکھ لیتا ہے تو تاج کا کچھ نہیں بگڑتا ہے - سپاہی کی گردن تلوار کا غلاف ہوجاتی ہے -"
"تمہاری صورت کی طرح تمہاری زبان میں بھی جادو ہے - کاش ----"
جملہ مکمل ہونے سے قبل برج ان کی خوشبو دار روشنی سے خالی ہوگیا -----" – قاضي عبدالستار، صلاح الدين أيوبي– ص٤١ : ٤٤.
[٥٧] – " انہوں نے تکلیف سے کراہ کر کروٹ لی -
ایلینور آہستہ آہستہ آئی اور دیوان کے سامنے دو زانو بیٹھ گئی -
"یوسف ! اگر تمہاری تقدیر نے یاوری نہ کی ہوتی اور بادشاہوں کی بادشاہی نصیب نہ ہوئی ہوتی اور تم صلیبیوں کے ہاتھوں غلام ہو گئے ہوتے اور رسیوں میں بندھے جانوروں کی طرح ہمارے حضور میں پیش کئے گئے ہوتے تو مسیح کی قسم ہم تمہارا ایسا استقبال کرتے کہ صدیوں تک تمہارا خاندان تمہارے نام پر فخر کرتا اور ہماری سخاوت کے افسانے سناتا - تبنین کے ہفری نے تمہاری شان میں جو قصیدے گائے ہیں آج پہلی بار ان کی صحت میں شک پیدا ہوا - "
" ہم بیمار ہیں ایلینور - "
" بیمار ؟ تم تو کہا کرتے تھے کہ جب ہم جہاد کے لئے گھوڑے پر سوار ہوتے ہیں تو مرض گردن سے اتر کر ہماری رکاب تھام لیتا ہے - "
" اگر تم کہو تو رچرڈ کی رہائی کے لئے سفارت روانہ کر دیں - "
" لیکن ایلینور ! ہمیں یقین ہے کہ ہماری سفارت سے پہلے ہماری بیماری کی خبر پہنچ جائے گی اور شکست خوردہ بادشاہ سفیروں کو گرفتار کر لے گا اور اسلامیوں کی ہیبت کو نقصان پہنچے گا - "
" اسلامیوں کی ذلت کے جھوٹے وہم پر ایک مجبور بوڑھی عورت کے جوان قیدی بیٹے کی جان اور ابرو کو قربان کر دینے والے نائٹ ، ایلینور کا سلام لے"
اور وہ پردہ اٹھا کر باہر نکل گئی - انہوں نے کچھ کہنا چاہا لیکن آواز کو یارانہ رہا - دونوں ہاتھوں میں چہرہ چھپا لیا ، آنکھیں بند کر لیں اور حضوری قلب سے دعا مانگی -
" پروردگار مجھے اس آزمائش سے نجات دے - اس امتحان میں سرخ رو کر - "– قاضي عبدالستار، صلاح الدين أيوبي– صـــ ١٨٥ : ١٨٦.

[٥٨] – "---------- ایک بار سلطان کی آنکھ کھلی تو دیکھا جیسے سامنے قحطان کھڑا ہے -

" قحطان ! "

دھندلی دھندلی سو گوار صورت میں سر سے پاؤں تک کاسۂ گدائی بنا ہوا ایک لفظ ایک حکم کی بھیک مانگ رہا ہے - ایک حکم جو کتنے ہی ملکوں کو تباہ کر ڈالنے والی لڑائی کے جنم روشن کر سکتا تھا - وہ کمزور نظروں سے اسے دیکھتے رہے - پھر ہاتھ کے اشارے سے قریب آنے کا حکم دیا - پلکیں جھپکا کر پوری آنکھیں کھول کر دیکھا تو مفتی اعظم سامنے کھڑے تھے اور تلاوت کر رہے تھے - ان کے سر سے بوجھ ٹل گیا اور قرآن پاک کی آیتوں کے دریائے معانی میں ڈوب گئے - جب قاضی القضاہ نے آیہ کریمہ کے الفاظ " لا الہ لا ھو " ادا کئے تو اپنی زبان سے بھی یہ مبارک الفاظ دوہرائے - جب قاضی اعظم نے " علیہ توکلت " پڑھا تو تبسم فرمایا - چہرہ یک بیک منور ہو گیا اور جان جان آفریں کو سونپ دی -

إنا لله وإنا إليه راجعون."-قاضي عبد الستار، صلاح الدين أيوبي- صـــ ١٩٠.

[٥٩] - جرجي زيدان، صلاح الدين الأيوبي- صـــ ١٣٤: ١٣٥.

[٦٠]- المرجع السابق- صـــ ١٤٤: ١٤٧.

[٦١]- لمرجع السابق- صـــ ٣٠٢: ٣٠٨.